دراسة وتحليل

الأبيات: من ١: ٧:

اللغة:

عفار الرسم: درس وبلى فهو لازم كما فى هذا البيت، وقد يتعدى بنفسه فيقال: عفته الريح أى: محته وأزالته.

ذات الأصابع، والجواء، وعذراء: أسماء أماكن كانت فى إمارة بنى جفنة من غساسنة الشام – وكان (حسان) – رضى الله عنه: - ينزل فى هذه الأماكن يوم أن كان ينتجهم بشعره فى الجاهلية، والأولان كانا بأكناف دمشق والثالث على بريد منها.

منزلها: المراد منازلها لأن المفرد المضاف إلى الجمع يعم، والضمير المضاف إلى المواطن الثلاثة السابقة.

خلاء: خاوية على عروشها – منزلها خلاء: تأكيد للمعنى المفهوم من عفو تلك المواطن، والغرض منه إبراز ما يؤلمه وهو خواؤها من أهلها، والبيت خبر أريد منه التحسر والتحزن والألم الممعن.

الحسحاس: الرجل الذى يطرد الجوع بسخائه، بيد أنه هنا منقول سمى به ابن مالك بن عدى بن النجار، وهو خزرجى من قبيلة (حسان) تعفيها: تمحوها والتعبير بالمضارع يفيد التجدد، والحدوث، والتضعيف يفيد المبالغة.

الأنيس: من يسكن إليه القلب، وتزول به الوحشة – المروج: مفرده: "مرج": وهو كل أرض واسعة ذات نبت كثير تمرح فيه الدواب وترعاه.. النعم الإبل، ويطلق أيضا على البقر والغنم والمراد هنا الشاء واحدها (شاة) وتطلق على المذكر والمؤنث من الغنم، أو منها ومن المعزى.

دع هذا: أى اتركه، ومن لطيف: استفهام قصد به التمنى. الغساء أول الظلام من الليل، والشعثاء: هى إحدى من كان يشبب بهن (حسان) ويروى أنها كانت بنت "كامن الأسلمى الخزاعى" وكانت زوجا "لحسان بن ثابت" رضى الله عنه – وفى رواية أنها بنت "سلام بن مشكم اليهودى" وقد أكثر (حسان) من التغزل فيها، والراجح أنها هذه لأن الأولى لم يوفق معها (حسان) فافترقا وتهاجيا.

تيمته: أسرته بقلبها، وأحاطت بأقطاره بهواها فليس لقلبه منها شفاء.

سيئة: فعلية بمعنى مفعولة. من سبأ الخمر إذا اشتراها لشربها ويروى "خبيئة" بمعنى مكنونة معتقة. بيت رأس: يقول يا قوت: "اسم القريتين بالشام تعرفان بكثرة الكرم والخمر. إحداهما "بالقدس"، والثانية بمناحى "حلب"، مزاجها روى بالنصب فهو "خبر" يكون مقدما، وروى بالرفع فهو مبتدأ والجملة خبر "يكون" واسمها ضمير الشأن، على أنيابها: خبر "كأن" وبه تم التشبيه، ومنه عرف المشبه وهو "حريق" والأنياب من الأسنان أربع تقع خلف الرباعيات يمينا وشمالا من أعلى ومن أسفل، واحدها "نابش" مؤنث. وهى غير مقصودة لذاتها فى البيت، وإنما خصت بالذكر لأنها تحدد المقبل من الضم ومن المقبل يتذوق الريق، وهو المقصود بالتشبيه المقصود بالتشبيه والوصف أو طعم: عطف على "سيئة" فهو ابتداء تشبيه آخر للرّيق غصنّ: ناضر طرى ناعم: هصّره. مضعّف "هصره" بمعنى أما له وحقّ له فى أغصانه. الجناء – اسم مصدر من "أجنى الثمر" بلزوم الفعل. بمعنى أدرك ونضج وحان قطافه. ويمكن أن يكون ممدود "الجنى" بزته "القطان مصدر: جنى الثمرة يجنيه إذا قطفه، كأنه التفاح، لاكتمال نضجه لم يتحمل أيدى قاطفيه فتكسرّ.

المعنى:

يحدثنا الشاعر "حسان بن ثابت" أنه حزين لما أصاب هذه الديار من دُثُور وبِلَى، وهى ديار تربطه بها ذكريات، وإن أشدّ ما يؤلمه إقفارها من أهلها، وخلوها من الأنيس والجليس فقد تعاقبت عليها عوامل البلى ومحتها محوا، ومما يزيد الشاعر أسىً وحزناً أن أهلها الذين خلت منهم الدار هم أهله وقرابته وأن وطأة البلى عليها شديدة ومما يزيده ألما أنها كانت آهلة بمن يأنس بهم، زاخرة بمظاهرة الخصب وأسباب العمران. ثم نرى الشاعر يترك الحديث عن الدار وينتقل انتقالا مقتضبا إلى الغزل متمنيا من يكفيه طيف محبوبته التى أرقته، وعاد لم تكتحل عينه بنوم، وقد انقضى السّامر ولاذ الناس إلى مضاجعهم، وانفرد به طيفها، فأرقه، وأصابه بالسُّهاد، فقاسى عذاب الأرق، وطول الليل – وما أشدّ طول الليل على العاشقين والمحبين، وبخاصة المريض الشاكى أو الحزين الباكى. فالشاعر يفرد أنه لا أمل فى برئه من حبها إنه طيف شعثاء، تلك التى استعبدته بحبّها، ودلّه عقله غرامها، ولذلك كان من الأمانى الضائعة احتماؤه من خيالها، ومما يقُاسى فى حبها، ويتحدث عن رضابها فهو رضاب حسناء يشبه الخمر المنتقاة والمجلوبة من أشهر البلاد صناعة لها وقد مزجت بماء يذهب مرارتها وعسل يكسبها حلاوة فى الطعم والمذاق، ثم يختم الشاعر ذلك التشبيه الجميل الرائع وهو يشبه رضاب الحسناء بالخمر فتشبيه آخر وهو طعم التفاح الناعم الطرى الناضر – وبهذا نعرف وقع ريقها لدى حسان فهو ريق يملأ نفسه نشوة وانشراحاً ويفعل به كما تفعل به الخمر بالشارب الثمل من لذة وحلاوة:

الأبيات من: ٨ إلى ١٠:

الأشربات جمع: أشربه "وهى جمع: شراب: والعدول عن صيغة الجمع على جمع الجمع لإفادة التعظيم وهو دليل على مكانة الخمر وعظمها لديه. الفداء – ما يضحّى به من أجل سلامة الشئ وحفظه. نوليها الملامة – نجعلها مسئولة عما يوجه إلينا من لوم – والملامة واللّوم: مصدر: لامه: بمعنى عذله وكدره بالكلام على عمل

لا يليق. ألمنا: روى للفاعل لازما، ومعناه فعلنا ما يوجب اللوم، وروى مبنيا للمجهول فهو من: ألامه من أى: لامه وعتب عليه من المفث والمماغتة. التضارب بالأيدى. اللحاء والملاحاة: التشائم والمنازعة باللسان.

ملوكا وأسدا. تشبيهات مبين بها وجها آخر من محاسن الخمر، وهو تأثيرها الطيب فى نفوس شاربيها.

المعنى:

ونرى الشاعر يجره الحديث عن ريق محبوبته الحسناء إلى وصف الخمر وما تفعله فى نفس شاربها، وهى أيضا صورة متممة للصورة السابقة، كما أن العبث يعبر عن رأى الشاعر فى الخمر فهى لديه فوق كل شراب وكل الأشربة فداها لقوة مخامرتها للعقول، فهى تفقدهم العقل، ولذلك ألقوا عليها المسئولية كاملة حين يوجه اللوم إليهم، فهى السبب فى أنهم لا يعقلون، ولا إلى كلام الناس يفطنون. وهم يشربونها فتسمو بنفوسهم، حتى ترتفع بهم إلى مستوى الملوك، عظمة وأبهة، ويبلغون بها درجة الأسود شجاعة وبسالة وهذا كله من أثر النشوة، والالتذاذ بشربها، وقوة أثرها فى نفوسهم.

الأبيات من ١١ إلى ٢١:

عد مناخيلنا: فقدناها. وهو أسلوب كنائى مقصود به لازمه وهو فقد العزّة ولحوق الذل والمهانة بهم، لأن الخيل من أسباب القوة لدى العرب، ومن فقدها فقد العزة والقوة ولحقه الذل والصغار والمهانة، وهو أسلوب خبرى حسب الظاهر، إنشائى بحسب المقصود منه وهو الدعاء على نفسه وقومه بالذل والهوان إن لم يحققوا ما يهدّد به قريشا وهو الغزو، والدعاء على هذا النحو مسلك من مسالك التأكيد التى يدرسها البديعيون تحت عنوان [القسم] وقاعدته: أن يعلق المتكلم على ما يريد تأكيده من فعل أو ترك أمراً محبوباً أو مكروها بالنسبة له أو لغيره والتأكيد بهذه الطريقة أقوى من الحلف، وأوقع فى النفس وهذا واضح فى بيت حسان، فقد جعل

الضعف والذل جزاء له ولقومه إن لم ينجزوا تهديده، والطبع العربى السليم يفهم من هذا التعبير تصميم صاحبه على إنقاذ ما هدد ولو ضحى بنفسه، لأن العربى يقبل الموت، ولا يقبل الذل كل الثنية العليا من مكة، وتلك نبوءة لحسان سبقه إليها الشاعر "كعب بن مالك الأنصارى" حين قال:

فـلا تعجـل أبـا سـفيان، وارقـب جـياد الخـيل تطلـع مـن كـداء

ولعل ذلك كان عقيب غزوة "أحد". وقد حققها الله فكان طريق "كداء" أحد المنافذ التى دخلت منها جموع المسلمين يوم الفتح. يبارين الأسنة: يسابقن – والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح وشباته ويروى "يبارين" "ويجاذبن" والأعنة جمع "عنان" وهو سير اللجام وعبارة "يبارين الأسنة" تصور اندفاع الخيل الغازية، وإسراعها المتزايد نحو المعركة بصورة رائعة فيها حركة متتابعة، وقد قبس حسان هذه الصورة من وضع الرماح حين يضعها الفرسان وضع الاستعداد للطعن وهم فى طرقهم إلى العدو، حيث يضجعون قوائمها على الخيل، وتكون أسنتها متقدمة أمام عيونها.

وقد أدرك حسّان هذا برهافة حسّه، ودقه ملاحظته فاستغله فى توليد هذه الصورة العجيبة الرائعة، وخيل إلينا أن الخيل حين ترى الأسنة أمامها تظن أنها تسابقها، فتضاعف من سرعتها حتى لا تفوتها، ولكنها تنتقل دائما بانتقالها، فلا تلبث أن تراها، ويزداد نشاطها فهو سباق من نمط غريب عجيب وسرعة فائقة لا حد لها – الأسل: مفرد أسلة وهى الرماح، وهو فى الأصل اسم لنبات دقيق الأغصان مستقيمها طويلها وهى صفات تستحب فى الرماح، ولذلك سمتها العرب "أسلا". والظماء: العطاش، والمراد هنا الظمأ إلى الدماء. يصور تشوق الأعداء إلى لقاء الأعداء ووصف الرماح بالظمأ [مجاز] علاقته المجاورة، وفائدته إثبات أن تلهف القراة للقاء الذى صوره بصورة العطش قد تجاوز الحد، وفاض حتى أعدى الرماح.

تظل: تستمر: متطمرات: مسرعات. تلطمهن – أصله "ضرب الوجه بالكف وهى مفتوحة، والمراد هنا مطلق ضرب الوجه، وتضعيف الفعل يفيد المبالغة، كما أن تلطيم النساء وجه الخيل يشعر بانهيار مقاومة الرجال واضطرارها للدفاع، وفى الوقت نفسه تصوير لجزعهن من ضراوة الغزو، حيث يخرجن حاسرات الرءوس يلطمن الخيل تجمرهن، وهى لا ريب سلاح مغلول، ومحاولات يائسة، ونرى فى تلطمهن (وهو مضعف للمبالغة) مأخوذ من طله الحيزة إذا حز بها بيده وسواها. فيكون بذلك معناه (الضربان) وليس المسح على وجوه الخيل، لأن مسح وجوه الخيل يكون تلطفا، وهنا لا تلطف بل هلع وفرع وجزع، والحزن من هول ما رأين. من عنف الغزو، وضراوة الاقتحام. والنساء هنا نساء المشركين، وروى أن رسول الله – ﷺ – رأى نساء هذا اليوم المشهود يلطمن خيول المسلمين بخمرهن فتذكر ما قاله (حسان) فسأل عنها أبا بكر وقال: أنشد بعض أبيات (حسان) يريد: عدمنا خيلنا...

إما وهي من إن الشرطية مدغمة فى (ما) الفتح: يقصد به دخول مكة بالسِّلم تحقيقا لما وعد الله به نبيّه من أنه سيدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم، ومقصرين، وليس مقصودا به الفتح الذى تحقق، وهذا يتضح لنا من المقابلة بينه وبين الجلاد، وفى البيت الذى يليه. انكشف الغطاء: انجلى الغموض، وتحقق وعد الله بدخولنا مكة.

إلاّ: هى: إن الشرطية ادمغت فى (لا)، والمعنى: وإن لم تعرضوا عنا... الجلاد. التضارب بالسيوف، يعز: يجعله عزيزًا لا يغلب ولا يقهر، ويروى يعون الله: أى يمده بعنونه.

(وحسان) – رضى الله عنه – أبهم المفعول ليحتمل المعنيين، وأن يفسر بتفسيرين: يفسر للمسلمين ويفسر للمشركين، وذلك ليوهم أن تعيين المقصود من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى تخصيص، لأنه من الأمور المعروفة أن الغلبة والنصر للمسلمين. وهذا شأن كل واثق من نفسه حينما يتحدى خصمهُ، ومثل هذا

الأسلوب أوقع فى النفس، وأقوى فى إثبات ما يتغياه الإنسان من التصريح، ومع هذا فالأبيات التالية تذكر من صفات المسلمين ما يؤكد أن المسلمين هم المنتصرون بعزة الله. ففيهم روح القدس، وهم المؤمنون به وبرسوله – عليه الصلاة والسلام – وفيهم الأنصار جند الله الذين أعلوا كلمته.

فمما لا ريب فيه أن الغلبة والنصر لهؤلاء الأجناد، ولا يمكن أن تكون لأحد سواهم.

روح القدس: ما به حياة من الإنسان، وهى الكامنة فى الجسد. "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

والروح: جبريل عليه السلام – "نزل به الروح الأمين". و"تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر". والروح "عيسى عليه السلام" وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه، و"فنفخنا فيه من روحنا" الروح: القرآن "وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء"، والروح: النصر والغيث من الله عز وجل.

ويطلق تجوزا على ما ترتفع به قيمة الشيء، أو أن يكون شيئا فى ظهور أمره القدس: الطهر، كفاء: نظير وعديل، والمراد بالعبد: محمد عليه الصلاة والسلام، إن تقع البلاء: هذا شرط وجوابه محذوف يفهم من سياق الكلام والتصوير إن نفعكم الاختيار. عرفتم أنه يقول الحق: "شهدت به وقومى صدقوه" بإضافة قوم إلى ياء المتكلم، وهو بذلك يكون من كلام (حسان) يقرر أنه وقومه آمنوا به وصدقوه على حين كفرتم به وحاربتموه، ويروى (شهدت به فقوموا صدقوه) بصيغة الأمر فى الحالين، وهذا احتمال أن يكون أيضا من كلام (حسان)، يسرت: هيأت. ويروى (سيّرت) أى جعلته (يسيرون) الأنصار: الأعوان، فيكون بذلك وصفا قد أطلق على أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين آووا الرسول عليه الصلاة والسلام، ونصروه هو وأصحابه رضى الله عنهم فيغلب ذلك الوصف عليهم حتى صار اسماً لهم، ولذلك ينسب إليه على صيغته دون الرجوع إلى المفرد فيقال "أنصارىّ" وقد

أشار (حسان) إلى السرِ فى هذه التسمية سماهم الله الأنصار، لنصرهم دين الهدى، وعوان الحرب تستعر[1]. العرضة: الهمة والعزم القوى أو الهدف والغرض من قولهم "فلان عرضة لهذا الأمر": أى قوى عليه. (مَعَدّ): هو الجد الأعلى لقريش إليه ينتسب أكثر عرب الشمال، وليس المقصود منه "الرجل" وإنما المقصود: المنتمون إليه وهم كل القبائل العدنانية – السباب: الشتائم والتراشق بقوارص الكلمة. والهجاء: تَعداد المعايب والمثالب. وهو غالب على ما يكون شعراً. نحكم من هجانا وهو مقيوس من (أحكم الفرس) إذا ألبسه الحكمة، وهى الحديدة التى تحيط بفكيه من اللجام وإرادة الكل – تختلط الدماء: كناية عن احتدام المعركة وكثرة القتلى، وهو كناية عن بسالة وشجاعة الأنصار.

المعنى:

يدعو الشاعر على خيل المسلمين بالفناء، وعلى المسلمين بأن يلحقهم الشنّار، والذل والعار! إن لم تتأهب الخيل لهذا اليوم الحاسم وتثير النقع الذى ينبعث من سنابكها. حتى يكون ظلا فوق رءوس المقاتلين متسابقة فى الدخول إلى مكة المكرمة – كما أنه يدعو على الفرسان بأن يلحقهم الذل إن لم يغزوهم غزواً مروعاً من فوق صهوات الخيل داخلين مكة من كداء، ويومذاك ستندفع إليكم خيولنا فى سرعة متزايدة فائقة يعتلى صهواتها فرسان مغاوير. كلما رأت الأسنة تزايد اندفاعها واستمر انطلاقها متبارية مع الأسنة متتابعة فى الدخول إلى مكة من كداء، حتى إذا وصلت إلى غايتها وحققت رغبتها، لم تجد من ينبرى لها إلا النساء اللاتى خرجن حاسرات الرءوس يلطمن الخيل بخمرهن وتلك حالة يائسة عاجزة، وسلاح خائر مغلول ونحن قادمون إلى مكة،. فإن نأيتم عنا وابتعدتم عن طريقنا، دخلناها سالمين مؤدين العمرة. تحقيقا لوعد الله بفتح مكة ونصرة نبيه عليه الصلاة والسلام، وبذلك يكفى الله الفريقين شر القتال.

---

(١) الديوان ص ١١٢ من قصيدة بعنوان "خير مؤتمن". ط. دار صادر بيروت بلبنان بدون تاريخ.

فإن تعرضتم لنا، وأعددتم العدة لقتالنا، ونهضتم لحربنا ولقائنا، عناداً أو غطرسة، فلا طريق إلا الدم المراق. تمهلوا ليوم اللقاء والانتقام يوم يمنح الله عز وجل عزته ونصرته لمن يشاء، وقد منحهم عز وجل أسباب النصر، وهى:

أن الله عز وجل معهم يمدهم بتأييده، وروح القدس معهم، يقاتل فى صفوفهم، فهو أمين الله ولا عديل له بين صفوفكم، ومن مقومات النصر أيضا الإيمان والعقيدة الراسخة فى نفوس المؤمنين المقاتلين، ومما لا ريب فيه أن القتال العقدى يقوى الروح، ويثبت المؤمن لأنه ينافح عن الحق المؤمن به. فيزيده استبسالا وشجاعة فى الدفاع عنه، والتضحية فى سبيله بكل غال مرتخص، وإن القوة المقاتلة، هم الأنصار جند الله سبحانه أعدهم لنصرة دينه وإعلاء كلمته، وهم المتمرسون بفنون المعارك فقد سبروا أغوارها، وخبروا أسرارها. عقيدتهم ثابتة، وإيمانهم راسخ وهم من أصحاب الهمم العوالى هدفهم منازلة الأقران، وهمتهم العالية قمينة بذلك، وخليقة بأن يكونوا أقوياء على المجابهة والمواجهة. ثم يومئ (حسان) إلى العداوة المتوارثة من قديم الزمان بين "العدنانيين" ومنهم قريش (والقحطانيين) ومنهم (الأنصار) ويعرب عما لهذه العداوة من مظاهر ثابتة يتجلى فى الصراع الدائم بين الفريقين فى كل ميدان من ميادين البيان والحرب، وهنا يضيف (حسان) سببا آخر وميزة من ميزات التفوق السابقة على الأعداء وهى أنهم يخوضون المعارك مع القريشيين ونفوسهم مفعمة بالضغائن القديمة والرواسب الماضية، وذلك من دواعى استعار الحرب، وضراوة القتال وشراسة المعارك وعنف الانتقام، وذلك يوم اللقاء.

والأنصار هم جند الله عز وجل يلقون محاربيهم ببسالة قاهرة، وشجاعة نادرة، كما أنهم يقابلون هاجيهم بهجاء يؤذيه وألفاظ تشدّ به، وأساليب تجعله يكف عن الهجاء، ويمتنع عن السباب والشتائم وهم بذلك يملكون أزمّة البيان، ويأخذون بتلابيب البلاغة، كما أنهم يملكون شجاعة القتال والبسالة لدى لقاء الأعداء يوم أن تختلط الدماء.

الأبيات من ٢٢ : ٣٢

اللغة:

ألا: أداة استفتاح، يؤتى بها للتنبيه على أهمية ما بعدها. أبلغ: أمر بالتبليغ لا يتجه الخطاب فيه إلى معين بل يتجه إلى كل من يستطيع التبليغ إلى أبى سفيان، وهو ابن عم النبى – عليه الصلاة والسلام – وكان عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين ونبى الإسلام – عليه الصلاة والسلام – وقد أراد (حسان) – رضى الله عنه – بذلك الأسلوب أن يستفتح على أبى سفيان.

المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى بلد فى سرعة فائقة. تقول: غلغل الرجل إذا أسرع فى سيره، وغلغل رسالة إلى غيره: يعنى بعثها محمولة من بلد إلى بلد آخر. برح الخفاء: انجلى الغموض. فهو بهذه الرسالة سيكشف أمره للناس ويروى. (فأنت مجوف نخب هواء) خطاب لأبى سفيان على طريقة "الالتفات" المجوف: الجبان اسم مفعول من (جوفه) إذا نزع ما فى جوفه، ومنه (القلب) فإذا نزع قلبه انتزع محل الشجاعة منه، وكذلك الأجوف (المجوف) مثل (معول) من: اسم للمفعول: إذا استعمل فى مثل هذا الموطن. النخب والمجوف والهواء: المعنى واحد وهو الجبان، والنخب أصله نخب الصيد إذا نزع قلبه وهو بزنته.

(كتف) العبد – القِن: الرقيق، وهذا المعنى ليس بمقصود هنا وإنما المقصود لازم هذا المعنى، وهو الذل والهوان. عبد الدار: بطن من قريش وقد كانت لهؤلاء القوم فى الجاهلية وظائف اجتماعية معروفة لدى العرب من هذه الوظائف (اللواء)، (الإماء) النساء. يومئ الشاعر بسيادة النساء لبنى عبد الدار، وذلك حينما صرعوا واحداً إثر واحد فى "وقعة أحد" حتى سقط اللواء من يد آخرهم فأنفذته (عمرة بنت علقمة الحارثية) فرفعته، واجتمعت عليه قريش بعد تفرقها، وبذلك كانت لها القيادة، الجزاء: الأجر والمكافأة إن خيراً فخير، وإن شرا فشر.، ومن استعماله فى المكافأة على الشر بمثله قوله سبحانه "وجزاء سيئة سيئة مثلها" أتهجوه: استفهام إنكارى توبيخى، الفداء: ما يضحى به لدفع الأذى. والغرض من الشطر الأخير

الدعاء بأن يذهب شر الرجلين ضحية وفداء لخيرهما، وإن كان (حسان) يعلن أن خير الرجلين محمد – عليه الصلاة والسلام – ولكن جرى أسلوب "تجاهل العارف" وترك للخصم الفرصة ليتدبر الأمر حتى يصل إلى الحقيقة بنفسه فذلك أدعى لإذعانه واقتناعه ورجوعه عن غيه وعناده، مباركا: متلبسا بالخير الإلهى، براً: كثير البر وفعل الخير حنيفا: مائلا عن الضلال والغواية إلى الاستقامة والهداية. أمن يهجو استفهام توبيخى كذلك موجه إلى قريش – منكم: متعلق (بحال) صاحبها – رسول الله – ﷺ – ولا يحسن تعليقه بالفعل "يهجو" وذلك من تعليق مثله بالفعل "يمدح"، لأنه نظيره، وذلك غير جائز، حيث لم يكن فى القرشيّين حينذاك من يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وفى جعله (حلا) ملحظ دقيق يبين وجه توبيخه لقريش فهو يسفههم على أن يتساوى لديهم من يهجو محمداً ومن يمدحه، مع أن محمداً منهم، فنصْرُه من نصرهم وشرفه برسالة الله تعالى شرف لهم فما كان ينبغى أن يسوُّوا بين خاذليه وناصريه.

العرض: موضع المدح والذم من المرء، أو هو كل ما يجب على المرء حمايته من جميع ما يتصل بنفسه، أو شيعته. وقاء: حفظ من شرورهم. تثقفن: مضارع "ثقفه" وهو من باب "علم" بمعنى صادفه ووجده، ولؤى أحد أجداد النبى – عليه الصلاة والسلام – وإليه ينتسب القريشيّون وهم المقصودون من بنى لؤى، جذيمة: هو حى من خزاعة ناصبوا الرسول – عليه الصلاة والسلام – العداء فغزاهم فى السنة الخامسة من الهجرة وجواب الشرط محذوف تقديره فليتقبلوا بهم أو فليعلموا أن مصيرهم من مصيره، ودليله (إن قتلهم شفاء).

الحلف: يطلق على العهد والصداقة بين اثنين أو أكثر، ويطلق أيضا على جماعة المتعاهدين، والمتصادقين وهو المقصود هنا – الحارث بن أبى ضرار: هو أبو أم المؤمنين (جويرة) زوج الرسول – عليه الصلاة والسلام – رضى الله عنها – كان قبل إسلامه رأس جذيمة فى مناوأة المسلمين وحلفه هم من تحالفوا معه على حرب الرسول – عليه الصلاة والسلام. قريظة: حى من اليهود كانوا بالمدينة عادوا النبى – عليه الصلاة والسلام – فغزاهم سنة خمس من الهجرة، وحاصرهم خمساً

وعشرين ليلة حتى ضجروا وارتضوا حكم حكومة (سعد بن معاذ) فى الصلح فقضى أن يقتل رجالهم وأن تسبى ذراريهم ونساؤهم، وأن تقسم أموالهم، صارم: قاطع. يشبه لسانه بالسيف البتار فى قوة تأثيره وشدة إيلامه لمن يتناوله. تكدّره أن تثير الكدر فيه، الدلاء: جمع دلو وهو ما يستقى من الماء استعار البحر لشاعريته، وأثبت له العمق فى السعة عن طريق الكناية فى قوله لا تكدره الدِّلاء، لأن الدِّلاء تعجز عن إثارة الكدر فيه إلا إذا كان الماء.

بعيد الغور: واسع المضطرب:

المعنى:

وهنا ترى الشاعر الإسلامى – (حسان بن ثابت) الأنصارى – رضى الله عنه – يستهل غرضا جديداً، ألا وهو هجاء أبى سفيان بن الحارث، فيقرر أن حقيقته قد انجلت، وسريرته قد اتضحت، وأنه فى سبيل إعلانها للناس يطلب إلى كلٍّ أن يأخذها عنه، ويواجه بها أبا سفيان بن الحارث دون مداراة أو مواربة. فقد باتت الأمور جلية واضحة، وهذه الرسالة تحمل بين طياتها تحقيرا لأبى سفيان، وتوبيخاً له حيث فرّ من الميدان فى غزوة بدر الكبرى، وما لحقه من ذل وشنار، وتحقير وعار لفراره من الميدان وخيانة القوم الذين ينتمى إليهم، وكان يقاتل بين صفوفهم حتى تولى قيادتهم نساؤهم، والشاعر يومئ إلى أن التى رفعت اللواء بعد خور مقاتليهم (عمرة بنت علقمة الحارثية) فاجتمعت قريش بعد تفرقها، وبذلك كانت القيادة لها، وأما أنت يا أبا سفيان فقد انقطع رجاؤك، وضاع أملك، وخارت قواك، وتبددت أمانيك، وتبخرت أحلامك، حيث إنك لم تفعل شيئًا يوم التقىَ الجمعان حيث فررت من الميدان وكذلك لم تفعل شيئًا فى ميدان الهجاء. فقد هجوت محمدا – عليه الصلاة والسلام – فانبريت لك بلسانى الصارم البتار مدافعاً عن رسول الله – ﷺ – وعن عرضه، وجزائى وجزاؤك عند الله سبحانه وتعالى الذى يجزى بالسوء سوءا، وبالإحسان إحسانا، "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" ومما لا ريب أن (حسان بن ثابت) محسن ينافح عن رسول الله – عليه

الصلاة والسلام – وأن أبا سفيان مسئ يهجوه له، ثم يطعن أبا سفيان فى شاعريته بأنه لم يصنع شيئا فى ميدان الهجاء. فقد هجوت محمدا – عليه الصلاة والسلام – فدافعت عنه وأبطلت هجاءك. وباء هجاؤك بالفشل الذريع، فلقد خضت ميدانا لست من فرسانه، وتطاولت بهجوك إلى مقام سامٍ، تنقطع دونه أنفاسك. فلم تنل من صاحبك ذى المقام الرفيع- محمد – عليه الصلاة والسلام، واستحق أن يكون الفداء لصاحب هذا المقام.

فلقد كنت مغروراً حين حسبت أنك ستنال بهجائك من الرسول الكريم الذى حوى الفضائل كلها من بركة وأمانة، ونبل وبرّ، واستقامة ووفاء.

ثم نرى الشاعر. قد وبخهم، وسخر منهم، وسفه أحلامهم. كيف يتساوى من يهجو محمداً – عليه الصلاة والسلام – ومن يمتدحه ليسوا سواء، مع أن محمد منهم فنصره انتصار لهم، وشرفه برسالة الله واصطفائه سبحانه وتعالى له شرف لهم فما كان ينبغى التسوية بين خاذليه وناصريه فضلا عن احتقارهم لهؤلاء المهاجمين، وإذا رضيتم لأنفسكم هذا الشعر فى حق رسول الله ﷺ فقد انتحيت منحى آخر، وفهمت سبيلا غير سبيلك وهو حمايته من شروركم بأبى وجدّى وعرضى، وسأواجه شروركم، وأتلقى طغيانكم فداء لرسول الله ﷺ ثم يهدد قريشا بسوء المصير إن هم ظلوا فى غوايتهم، واستمروا فى عنادهم، ومكابرتهم، ويذكرهم بمصارع من أوقع الرسول – عليه الصلاة والسلام – بهم من أعدائه، ويحذرهم أن يكون مصيرهم كمصيرهم، فإن لقيتم جذيمة فستعرفوا من حالهم الذليل شر نهايتكم، وسوء عاقبتكم، حيث انتقمنا منهم شر انتقام، وشفينا بإهلاكهم الصدور.

فالشاعر يجلى ضراوة انتقامهم من (جذيمة) ذاكراً الأسباب فهم أعانوا أعداءنا، وتحدوا جموعنا، وناصبونا العداء، وأصروا فى عناد على حربنا، وقتالنا، ويمالئون عدونا. فما كان منا إلا أن بطشنا بهم بطشة الأسود، ونشبنا أظفارنا فى رقابهم حتى امتلأت بالدماء، وها هو ذا حلف الحارث بن ضرار رأس جذيمة – فى مناوأة،

وحلف قريظة من اليهود ماثلا أمام عيونكم يصوران بها وصلا إليه من الدمار نهاية لكل ظالم باغ، ويمضى كل معتد أثيم و(حسان بن ثابت) يَتَغَيّا من وراء ذلك تهديدهم، ووعيدهم ثم يهددهم تارة أخرى بالهجاء المؤلم الموجع الذى يشبه ضربات الأسياف، وهذا الهجاء ممتدّ ماله من نفاد، فهو يمتح من ركائز شعائرية أصيلة، وملكة غزيرة، فهى كالبحر المديد الواسع العميق لا يؤثر فى مائه، ولا يثر أكداره نزح الدِّلاء، وهذا دليل على شاعريته الثرَّية، وخياله الرحيب وإحساسه المرهف، وعقيدته الراسخة، وحبه لرسول الله (ﷺ).

بين يدى القصيدة

لا يرتاب أحد من الرواة فى أن القصيدة للشاعر "حسان بن ثابت" – رضى الله عنه – وهى اثنان وثلاثون بيتا، كما وردت فى ديوانه.. كما أنه أوردها كذلك كل كتاب تعرض لها بالرواية أو الشرح والتحليل. وقد دار خلاف حول هذه القصيدة من حيث إنشائها فى وقت واحد، ولمناسبة واحدة، والصواب أن ذلك غير صحيح، وأن صدر هذه القصيدة يختلف فى مناسبته وزمانه عن بقيتها، وأن أبياتها العشرة الأولى هى من الشعر الذى أنشده (حسان بن ثابت) فى الجاهلية، ونحن نميل إلى هذا الرأى، بل نؤيده ونسوق على صدق ما ذهبنا إليه من الأدلة والبراهين الساطعة ما يجعل القارئ يؤيدنا فيما ذهبنا إليه، ويرى ما ارتأيناه فإن الأبيات العشرة الأولى تضمنت من الألفاظ والمعانى ما لا يتفق مع سيرة "حسان بن ثابت" وما عرف عنه بعد انخراطه فى الإسلام، كما أنها لا تتناسب والوقت الذى قيلت فيه، ونعنى بذلك المعانى التى تمجد الخمر وتعظمها، وتغرى بشربها، وذلك من مثل قوله:

إذا مـا الأشـربات ذكـرن يـوماً ... فهـن لطـيب الـراح الفـداء

نولـيها الملامـة إن ألمـنا ... إذا مـا كـان مغـث أولحـاء

ونـشربها فتتركـنا ملـوكاً ... وأسـداً مـا ينهنهـنا اللقـاء

فغير معقول أن يصف "حسان بن ثابت" الخمر ويمجدها ويغرى بشربها غيره بعد إسلامه، وبعد انقطاعه عن معاقرتها، وشربها ومجالسها تؤكد ذلك سيرته الذاتية – كما أنه ليس معقولاً أن نعد ذلك الوصف من قبيل الصناعة الشعرية، وأنه جرى

فى ذلك على عادة الشعراء، أو أنه قول غير مصحوب بعقيدة، فالإسلام الذى حرم الخمر، وعدها رجساً من الأرجاس، وشربها كبيرة من الكبائر، لا يبيح لشاعر أن يحرض الناس على شربها بمثل ما وصفها به فى أبياتها آنفة الذكر، وإن كان الواصف لها "حسان" وقد ذكر الرواة أن حسان بن ثابت – رضى الله عنه – مر بفتية من أهل المدينة، فوجدهم يشربون الخمر، فنهاهم عن شربها، فاعتذروا إليه بدعابة ومرح عليه مسحة من روح الشباب وعبثه المعهود، وقالوا له: كلما هممنا بتركها أغرانا بشربها قول:

ونـــشربها فتتركـــنا ملـــوكاً وأســـداً مـــا ينهنهـــنا اللقـــاء

وهم بهذا يلوحون إليه أن اترك هذا النصح لغيرك من الذين لا يعرفون شربها، ولم يذوقوا طعمها، فأقسم لهم أنه ما شرب الخمر منذ دخل الإسلام.

مما تقدم يستبين لنا بجلاء ووضوح تامّين أن الأبيات العشرة التى استهل بها حسان القصيدة جاهلية فأسلوبها وصبغتها ومعانيها لا تتواءم وسيرة الصحابى الجليل – رضى الله عنه – كما أن الحياة الإسلامية يومذاك لا تتقبل مثل هذه المعانى، حيث إن المجتمع الإسلامى يومئذ يموج بالروحانية العالية، والشفافية التامة، وخاصة فى ذلك الوقت الذى أنشد فيه حسان هذه القصيدة. ومن النظرة الفاحصة للأبيات والوقت الذى قيلت فيه، والمناسبة التى أنشد لها حسان هذه الأبيات من اليسير الهين أن نسبر أغوارها، ونقف على أسرارها، ونحدد الزمن الذى قيلت فيه الأبيات العشرة. فمن روح الأبيات ومعانيها يشيع فيها جو الأسى، ويغطيها الحزن، وتشملها الكآبة، وأن المناسبة التى قيلت فيها غير سارة سواء أكانت مقصودة لذاتها، أم أنها جعلت تمهيداً لغرض شعرى آخر. وهنا يظهر تساؤل وهو: ما الذى جعلها تروى فى ديوانه وفى جميع مصادر الأدب على أنها قصيدة واحدة؟!!، وللرد على هذا التساؤل نقول: يبدو أن "حسان بن ثابت" – رضى الله عنه – قبل أن يشرع فى إنشاد هذه القصيدة التى يهجو فيها أبا سفيان – قبل إسلامه – ويمدح

رسول الله ﷺ ويبشره بفتح مكة من كداء ويمدح الأنصار والمهاجرين، ويجعل عرضه فداء ووقاء لعرض رسول الله – عليه السلام – أخذ يترنم بهذه الأبيات الجاهلية، ليملأ نفسه بنغمها، ويمتع نفسه بجرسها، ويستمتع بجزالة لفظها وموسيقاه انطلق بهذه الموسيقا الحالمة، والنغم الممتع فأنشد الأبيات على نفس الوزن والقافية فسمعها الرواة، فرووها على أنها قصيدة واحدة والحق أن هذه الأبيات ليست من القصيدة فى شئ، وهناك احتمال آخر، وهو أن بعض الرواة سمع مجموعتى الأبيات، ووجدهما على وزن واحد وروى واحد، ويتشابهان فى المستوى الفنى، فضم الأبيات وجعل المجموعتين قصيدة واحدة دون تحفظ. أما بقية الأبيات فيما وراء العشرة الأولى فمما لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان أنها أنشدت فى الإسلام، يؤكد ذلك ما انتظمته القصيدة من معانى إسلامية، وما تضمنته من وقائع، وما بدا على الأبيات من مسحة التأثر بالأساليب القرآنية، بيد أن بعض المؤلفين قد يوقعك فى اللبس لدى تحديد المناسبة التاريخية لهذه الأبيات، فقد ورد فى كثرة كاثرة من الكتب أن الأبيات قيلت فى فتح مكة، وهذا لون من ألوان التساؤل فى التعبير، فهو تحديد غير صادق، حيث إن القصيدة لم تتحدث عن الفتح كأمر واقع، وإنما تحدثت عنه كوسيلة من وسائل التهديد والوعيد لقريش. على الرغم من ورود كلمة الفتح فى بعض أبياتها، والمقصود به أمر آخر غير الفتح لمكة. حيث إن الجيش الإسلامى دخلها بعد الغزو والجلاد الذى هددهم به حسان فى قوله:

فإمـــا تعرضـــوا عـــنا اعتمـــرنا ... وكـــان الفـــتح وانكـــشف الغطـــاء

وإلا فاصـــــبروا لجـــــلاد يـــــوم ... يعـــــز الله فـــــيه مـــــن يـــــشاء

فالشاعر يعلق الجلاد على إبائهم السلم، وإصرارهم على منع المسلمين من دخول مكة لأداء العمرة، وقد كان ذلك سابقاً على يوم الفتح، والقصيدة هجاء

لأبى سفيان وتبشير بفتح مكة، وأنهم سيدخلونها من طريق كداء. ويمكن أن نستبين التحديد الدقيق لزمن القصيدة، ومناسبتها من بعض أبياتها، حيث تومئ بعض الأبيات إلى أن المشركين اعترضوا طريق المسلمين ومنعوهم الاعتمار، وكان ذلك الحدث عام الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة النبوية، حيث خرج النبى ﷺ ومعه المسلمون، وكل من رغب فى صحبته من القبائل التى لم تسلم بعد، وكانوا قد خرجوا مسالمين محرمين يسوقون الهدى، ليست لهم غاية سوى زيارة البيت. فإذا بكفار مكة يصدونهم محاولين منعهم من الاعتمار. فأنشد "حسان" هذه الأبيات تهديدا لقريش، وهجاء لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

تعقيب:

هذا لون من ألوان الشعر الإسلامى يتناول غرضا من الأغراض التى تتناسب مع جلال الدعوة وعظمتها، فالمديح والهجاء، وإن كانا من التى تعرض لها الشعر الجاهلى إلا أن الإسلام شذبهما، وهذبهما وصقلهما بروحه، وغمرهما بتعاليمه السامقة، وأهدافه السامية النبيلة، فلم يعد المدح حينئذ سبيلا للكدية والاستجداء، ولا وسيلة من وسائل الثروة والغنى، كما أن الهجاء لم يعد أداة للهدم، وسبيلا من سبل الانتقاص بدون حق.. بل كان المديح والهجاء فى المجتمع الإسلامى وسيلة وسائل توطيد الدعوة، وسلاح من الأسلحة التى ينافحون بها عن قائد هذه الدعوة – سيدنا محمد ﷺ.

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: يتناول كل قسم منها موضوعاً خاصاً فالقسم الأول ينتظم عشرة أبيات استهل الشاعر بها القصيدة.. بكى الشاعر فيها الديار، وتغزل فى محبوبته، ووصف الخمر، وهذا الموضوعات متمايزة فى حقيقتها بيد أنها متواشجة القرابة، وثلاثتها تشترك فى معنى واحد، هو أنها أمور تخص الشاعر وحده، وقد راعى الشعراء ما بينها من وشائج وأمشاج، وجرت عادتهم على تناولها هى وما يشبهها من حديث النفس ويلائم بينها فى حديث واحد يصدرون به القصائد، ويهيئون بها جواً نفسيا مناسبا لغرضها الأصيل، وتحدث الشاعر فى أبياتها

الثلاثة الأولى عن الديار، وبثها حزنه، وأشرك غيره معه فى حزنه وأساه، وإن كان الشاعر لم يطلب من أحد هذه المشاركة، أو يستوقف غيره ويستبكيه كما فعل شعراء الجاهلية فى مقدماتهم الطللية كما رأينا لدى امرئ القيس حين وقف واستوقف، وبكى واستبكى، ووصف الحبيب والمنزل، فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فحسان بن ثابت لم يفعل ذلك بيد أنه لمس الجوانب التى تثير كوامن الشجن لهذه الديار وأبرزها فى حديثه فوضع أمام أعيننا دثورها، وخلوها من قطانها الذين هم أهله، وأن هذه الديار وقعت تحت عوامل البلى والمحو التى تعاقبت عليها، والشاعر إذ يضع نصب أعيننا هذا الكوارث التى انتظمت الديار لم يفته أن يضع صورتها السعيدة حيث كانت بالأمس حافلة بالأنس زاخرة بالسمار، ومظاهر الخصب والعمران، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى حديث الغزل فى الأربعة أبيات التالية انتقالا فيه اقتضاب. كما أننا نراه فى غزله لم يطل، ولم يَتَّخِذه غرضا يجلو فيه محاسن محبوبته، ويكشف عن مظاهر الجمال لديها، وإنما قصد أن يرينا مقدار حبه لها وما فقد به ذلك الغرام، ولذلك نراه قد اكتفى منها بطيفها، وريقها وعالجهما على نحو يحقق غايته، ويشعر بعمق هذا الحب، وآثار الغرام فى نفسه. أما الطيف فقد شكاه، متمنيا الحماية منه، فقد اعتاد زيارته فى كل ليلة حينما ينفض السُّمَّار، ويخلد إلى نفسه فيستبد الطيف به ويشغل باله، ويؤرقه فلا تكتحل عينه بنوم، وبذلك يقع فريسة للسهد والوحدة ووحشة الليل. وتمنى الحماية من طيف المحبوبة لا يرغب فى أن يقطع صلته بها أو أن ينأى بقلبه عنها، لا يريد ذلك وإنما هى عادة العشاق إذا برّح بهم الوجد وقاسوا من عذاب الهجران، حينذاك يأخذون فى تجسيم آلامهم، وتمثل الطيف برهاناً على تمكن الحب من قلوبهم. رجاء أن يحل الشخص محل الخيال، وأما الريق، فيبدو أن الشاعر كان مغرما بذوقه، حيث تعرض له كثيراً فى شعره، فقد شبهه هنا بخمر منتقاة، ذهبت مرارتها بمزاج من عسل وماء وتارة أخرى بطعم تفاح ناضر ناعم طرى. تكامل نضجه، وغايته من ذلك نقل مشاعره إلى الآخرين.

بما يجده فى نفسه لدى تذوق الريق. فهو يلتذ به، ويقبل عليه بنهم وشره، وسرف، وتمتلئ نفسه بنشوة تنسيه ما حوله، وتبعده عن واقعه فيعيش بذلك فى خيال جميل وبذلك نقف على مقدار سعادته فى القرب، والصفاء، ومقدار شقائه فى البعد والجفاء.

ثم يتطرق الشاعر من الغزل إلى وصف الخمر، فنراه يمجدها ويحرِّض عليها. ويغرى بشربها، وسما بها فوق كل الأشربة لقوة مخامرتها للعقول، وشدة سلبها للوعى، وسيطرتها على تصرف شاربها حتى تغدو مسئولة عنه وعن تصرفاته، وهى تسمو بشاربها إلى جلال الملوك، وتملؤه بشجاعة الأسد، وضراوتها، وإقدامها، والأبيات مستقلة عما قبلها فى الفهم، ويمكن أن يعد مضمون الأبيات قصراً مستقلاً، ولا يمكن الانتقال إليه طفرة أو اقتضاباً كما صنع فى تحوله من بكاء الديار إلى الغزل، حيث إن تشبيه الريق بالخمر يلطف هذا الانتقال، ويكفى للربط بين الموضوعين، ولكننا مع ذلك نرجح أن هذا الوصف لم يكن مقصودا لذاته، وأن الشاعر أراد أن يستكمل به الصورة التى رسمها لريق محبوبته (شعثاء)، وأن يضيف إليها ما ذكر من محاسن الخمر وآثارها النفسية. وقد يعده بعض النقاد استطراداً، وهو فى الحقيقة ليس كذلك، وإنما هو اتباع لمذهب شعرى مألوف لدى القدماء، يلجأ الشاعر إليه برغبته فى تدقيق الوصف لما يصفه وإبراز ما يخفى من دقائقه، فيعمد إلى تشبيهه بشئ أعرف منه. ثم يسترسل فى أوصاف المشبه به، وتبيان تفاصيله لينقلها إلى المشبه، ومن الممكن أن يسلك ذلك فى باب ما سمّاه علماء البديع "التتميم" لولا أنهم ضيقوا نطاقه، وجعلوه فى حدود البيت الواحد ولولا أن بعض الشعراء قد يطل فى هذا الاسترسال ويبدو حديثه عن المشبه به وكونه غرضا أصيلا. هذا هو القسم الأول من القصيدة وقد أومأنا آنفا إلى أنه جاهلى، وهو فى الحقيقة مبتوت الصلة ببقية أبيات القصيدة، ولا يمثل شعر (حسان) الإسلامى لما عرف عن خلقه وسيرته بعد دخوله الإسلامى، وأن هذه الأبيات التى تصدرت القصيدة من شعره الجاهلى، ولا ريب فى ذلك. أما القسم الثانى من القصيدة فموضوعه تهديد قريش ويقع فى أحد عشر بيتا وقد مهد الشاعر لهذا التهديد بتأكيد لا يدع

مجالا لريبة فى وقوعه، فهو يدعو على نفسه وقومه بالخور والذلة إن لم ينجزوه، وأن ذلك الغزو الذى هددهم به حسان نبأهم بأنه سيكون غزواً عنيفاً بجيش عرمرم يثير النقع بكثرة عدده، وقوة اندفاعه، وستنطلق به الخيل من طريق [كداء] وتنصب فى سرعة متصاعدة، كأنها تسابق ما لا يسبق ويعنى أسنة الرماح المضجعة على أكتافها، وتلك الخيل تحمل فرسانا هم أشد ما يكونون حرصا على اللقاء، يتحرقون شوقا إلى الفتك بالأعداء، وكأنما فاض هذا المعنى على رماحهم فبدت متعطشة إلى الدماء، وتستمر الخيل فى سرعتها، لا تصدها مقاومة ولا يقف فى طريقها أحد حتى تدخل مكة فلا تجد غير نسوة ملأ قلوبهن الفزع وأحاط بهن الذعر والهلع، وانعكس ذلك على تصرفهن، حتى كشفن الرءوس وأخذن يلطمن الخيل بالخمر. ثم يعرض الشاعر على قريش أن ينأوا بأنفسهم عن هذا الشر ويخلوا السبيل ويمكنوا رسول الله ﷺ من دخول مكة – وتأدية العمرة ليتحقق بَذلك وعد الله، ويكون ذلك سلما. فإن أبيتم السلام وأخذتكم العزة والاثم فانتظروا يوم الانتقام، يوم يتحقق هذا الوعيد بمقارعة الأسياف ويوم ذاك يتحقق النصر بجند محمد عليه الصلاة والسلام – وتكون لهم الغلبة والعزة التى يكتبها الحق تبارك وتعالى لمن شاء أن يعزه، وهى بلا ريب للمسلمين. والنبى عليه السلام والمسلمون هم المنتصرون، لأنهم يستمدون العون من الله، وذلك بصحبة جبريل عليه السلام وهو أمين الله، وروح قدسه، والقوة الخارقة القاهرة التى لا نظير لها فى صفوف الكافرين. وحيث إنهم أهل إيمان قوى، وعقيدة راسخة، فقد اختبر الله خلقه حين أرسل نبيه ﷺ بدعوة الحق، فنفعهم الابتلاء فصدقوه وآمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه، وعمرت قلوبهم باليقين، وعميت قلوب الكافرين المعاندين وبذلك أمعنوا فى الغى والضلال، والعناد والمكابرة، وحيث إن الأنصار منهم وهم جند الله الذين أعدهم لإعلاء كلمته، وهم أصحاب الهمم العوالى، والعزائم القوية، والقلوب الثابتة فى خوض المعارك، وهم الذين تأصلت العداوة بينهم وبين العدنانيين، وقريش منهم ومارسوا حربهم أزمانا طوالا، وكان النصر فيها حليفهم فقد حاربوهم باللسان فأدبوهم بأشعارهم، ووجهوا ذلك لكل من تعرض لهم بالهجاء،

وحاربوهم بالسلاح فما وهنوا عن الضرب حين يحتدم العراك، ويحمى وطيس المعركة، ويشتعل أوارها، وتختلط الدماء.

تلك هى الأفكار التى انتظمها القسم الثانى من قصيدة الشاعر "حسان بن ثابت" رضى الله عنه، وقد سلكها فى ثلاث حلقات هى:

أولا: تصور العمل الانتقامى الذى يهدد قريشا به.

ثانيا: تعرض حلا للموقف، إن رضيه المشركون؛ كفوا أنفسهم شر الانتقام.

ثالثا: توضح وسائل القوة التى تكفل إنجاز هذا العمل، وتضمن النصر للجيش الإسلامى.

وقد راعى الشاعر فى ترتيب هذه الحلقات، وترتيب أفكارها والتركيز على بعضها دون بعض، مقتضيات الموقف، وما يكتنفه من ملابسات.. فالبدء بحديث الانتقام، وتأكيده بما ينبئ عن العزم والتصميم والتصوير بهذه الصورة الرهيبة المرعبة التى تنخلع لها القلوب، وهذه الأمور اقتضتها الثورة النفسية للشاعر، فقد كان حسان يومذاك مشحون النفس بالغيظ والغضب، وطبيعة الإنسان فى مثل هذه الأحوال تدفعه إلى محاولة التنفيس من ثورته والتماس ما يخفف عن نفسه بأى لون من الألوان، فإن لم يستطع ذلك بعمل ينهض به فلا أقل من أن يكون بالكلمة المعبرة عن خوالج النفس، وخواطر الذهن وذلك ما فعله الشاعر، حيث استجاب لفطرته حينما جعل صدارة الأبيات لحديث الانتقام وأعطاه الصورة المرعبة المهولة المروعة ليكافئ بذلك ما يختلج فى نفسه من ثورة عارمة، وغضبة ضارية. وقد كان ميزان القوة بين الفريقين غير متكافئ، فزمام المبادأة فى يد المشركين وهم مستعدون لحرب خاطفة، والمسلمون تكتنفهم دهشة المفاجأة وهم عزل من كل سلاح عدا سلاح الإيمان الذى يغمر قلوبهم والعقيدة الراسخة التى تثبت أقدامهم، فكان على الشاعر حينذاك أن يبادر بما ينهض بعزائم المسلمين ويشد من أزرهم ويعوض مشاعرهم مما تحس به من نقص فى ميزان القوة المادية، محاولا إرهاب المشركين

وذلك بتهديده لهم. والحل الذى عرضه الشاعر لإنهاء الخلاف لم يأخذ من جهده غير بيت واحد، وكان بمقدوره أن يطيل بذكر ما يعرف من مزايا السلام، ولكن الشاعر لم يفعل فهو فى الحقيقة يريد استسلام قريش تحت رعدة من التهديد، ولذلك مر الشاعر بهذا الغرض مرَّ الكرام، وعاد إلى ما كان فيه من تهديد ليبين الأسباب والقوى التى يعتمد عليها المسلمون فى إنجاز ما وعدوهم به من نصر مؤزر مبين عليهم، وتلك القوى التى عرضها حسان تنتظم أمرين:

الأمر الأول: القوة الروحية، المتمثلة فى عزة الله وجلاله، وصحبة جبريل عليه السلام للمسلمين، ثم الإيمان الذى يعمر قلوبهم، وتمتلئ به أفئدتهم.

الأمر الثانى: القوة المادية، التى قوامها الأنصار الذين هم صُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء.

ونرى الشاعر يقدم القوة الروحية على القوة المادية ليدخل بذلك الطمأنينة فى قلوب المسلمين، ويذكرهم بهذه الإمدادات الروحية التى تصحبهم فى كل موقع، وتكفل النصر لهم مع قلة العدد والعُدة، وبها يتحقق لهم النصر على الجموع المحتشدة والتى تفوقهم عددا وعتادا من المشركين، ويوحى فى الوقت نفسه بأن القوة المادية أمر ثانوى، لا أثر له إلا بوجود القوة الروحية، ومع ذلك فإن الشاعر لم يقصر فى تفخيم القوة المادية للمسلمين، فقد ذكر من أوصاف الأنصار ما يجعل لهذه القوة وزناً راجحا لدى الكافرين.

والقسم الثالث من القصيدة يضم بقيتها، والأبيات وموضوعها يختلفان باختلاف الروايات، فهى على رواية (ابن هشام) ثمانية أبيات فى هجاء أبى سفيان بن الحارث، وتقريع قريش على احتضانها له ولأمثاله ممن يهجون محمدا ﷺ. وفى رواية ديوان الشاعر أحد عشر بيتا، تضم إلى ما سبق تهديدا جديدا لقريش بزيادة ثلاثة أبيات قبل الأخير، وقد استهل الهجاء بخطاب عام وجهه إلى كل من يستطيع التبليغ ليحمل عنه رسالة بما تكشف من حقيقة أبى سفيان، وينتقل بها من مكان إلى آخر حتى يصل إلى ذلك الهجاء فيواجهه بأن أسياف المسلمين قد دمغته بعار الجين

والذلة حين فرّ منها فى وقعة بدر الكبرى، وأنها كشفت خور وجبن عصابته من المشركين بما نالت من أبطالها فى معركة "أحد" حيث سقط اللواء، إلى أن حمته النساء. وأنك يا أبا سفيان لم تنل من هجوك لمحمد عليه السلام ما أردت، فقد انبريت لك، وأبطلت هجاءك، وحسابى وحسابك عند الله، وما كان ينبغى أن تنتظر نجاحا فى هذا الهجاء، فقد كان ذلك حمقا وجهلا منك حيث اقتحمت ميدانا لست من فرسانه، وهجوت من لا توزن به قدرا وشرفا، وعظمة واحتراما، ومهابة وإجلالا، فهو يسمو عليك سمو الخير على الشر، فلتذهب نفسك الشريرة فداءً وثمنا لدفع السوء عن محمد ﷺ، وما كان ينبغى لك أن تخدعك حماقتك، وتتوهم أنك ستنال من عظمة محمد عليه السلام المشمول ببركة الله، كثير البر والخير، مائل عن الغواية والضلال، إلى الاستقامة والهداية، فهو أمين على رسالة ربه، مجبول على الوفاء. ثم يتجه الشاعر إلى تقريع قريش قائلا لهم: إنكم ملومون على سفاهتكم، فما كان يليق بكم أن تسووا هاجى محمد وخاذله، بمادحه وناصره، مع أنه منكم، وشرفه شرفكم وفخره فخر لكم، فإنكم حمقى وسفهاء. إن كان هذا هو موقفكم منه عليه السلام، فقد جعلت نفسى درعا بينه وبينكم، وجعلت أبى ووالده، وعرضى لعرض محمد منكم وقاء. وإنى لقمين بتأديب سفهائكم، حيث لسانى قارص الهجاء، يشبه فى إيلامه تمزيق من يناله سيف بتّار، وشاعريتى غير محدودة الطاقة، فهى كالبحر البعيد الغور، الذى لا ينفد ماؤه، ولا يكدره نزح الدلاء.

ذلك ما تضمنه القسم الأخير من القصيدة كما رواه ابن هشام وقد تصرف فيه الشاعر تصرفا بارعا، حيث بدأ بإعلان الحرب على أبى سفيان موسعا دائرة التشهير به، لينشر مخازيه ويذيعها على كل لسان، وحتى تسير بها الركبان، وهو تمهيد مناسب، فيه مرارة، وقسوة تؤلم أبا سفيان، ويفتق الأذهان إلى ما يأتى من تفاصيل هجوه، وفى ذلك الأمر تجلت براعة الشاعر، حيث اكتفى حسان بذكر جوانب معينة من شخصية أبى سفيان، مع تسليط الأضواء على ما فيها من عوار، وأنه لم يختلق ولم يسرف فيما عرض له من عورات، وقد اقتصر الشاعر على هذه الجوانب دون غيرها، لأنه أمام هدف معين، وحقه أن يختار من المعانى ما يناسب هذا الهدف ويوصل إليه، وهو لا يهجو أبا سفيان بوصفه شخصا عاديا، بل إنه يهجوه فى شخصية

المعادى لرسول الله – عليه الصلاة والسلام – فواجبه أن ينظر فى الصفات التى تؤلف عناصر هذه الشخصية، فإذا استطاع أن يبطلها فقد هدم هذه الشخصية وحطمها، وهذا ما فعله حسان بن ثابت – رضى الله عنه – فقد كان لأبى سفيان فى عداوة محمد عليه السلام صفتان: فهو مقاتل لا تفوته معركة فى حرب محمد بالسلاح، وهو شاعر لا يكف لسانه عن نباح النبى والمسلمين، ولهذا اكتفى حسان بهاتين الصفتين وأنفذ فيهما طعناته حتى قضى عليه بصفته محاربا فى بيت واحد، واستغل فيه حقيقة لا يستطيع إنكارها، وهى الجبن الذى ألصق به ذلة، وأى خسيسة تهدم المحارب غير ما يسجل عليه من خزى الجبن وعار الفرار؟!! ثم قضى عليه شاعرا بحقيقة أخرى أخذها حسان من الواقع وهى عجز أبى سفيان عن أن يؤثر فى مقام محمد بهجائه، ثم وضح الشاعر هذه الحقيقة معللا السر فى فشل أبى سفيان وعجزه فى النيل من مقامه عليه السلام محاولة أبى سفيان مالا طاقة له به، فهو فى الحضيض، وأنىّ له أن يمسَّ السماء السامية، وكيف يؤثر بهجائه وغثاء كلامه فيمن تجمعت له كل أسباب العظمة، وتأنيب قريش ليس غريبا عن هجاء أبى سفيان، لأنه يهجوه على عمل يعد سكوتهم عليه سفها يستحق اللوم والتقريع، فهو مبنى عليه ومكمل له والانتقال بينهما لا بعد فيه، بل لعل الشاعر يقصد من توبيخ قريش أن يدبر وقيعة لأبى سفيان ويؤلب عليه قومه. فهو يذكرهم بأن محمدا منهم، ونجاحه نجاحهم، وفخره فخر لهم، وانتصاره انتصار لهم، ثم يقرعهم على احتضان أعدائه، وتخليهم عنه. ونرى الشاعر لا يكتفى بالتقريع والتنديد فى تأديب قريش على موقفهم آنف الذكر، ولذلك نراه يهددهم بأنه مصمم على الدفاع عن محمد، والانتقام منهم، مبيناً سلاحه الذى سيخوض به المعركة ضدهم، وهو الهجاء الذى يمزق الأعصاب، ويقضى على الشرف، ثم شاعريته التى لا يلحقها وهن، ولا يعتريها الفتور.

أما الأبيات الثلاثة التى زادتها رواية الديوان، وهى من البيت التاسع والعشرين إلى البيت الواحد والثلاثين، فإنها تضيف التهديد بالسلاح قبل التهديد والهجاء، حيث يقول فيها:

إن لقيت قريش بنى جذيمة عرفت منهم مصائر أعدائنا، فما شفى غيظ قلوبنا منهم، إلا سفكنا لدمائهم، لأنهم جرؤا على مناوأتنا، فبطشنا بهم بطش الأسد، وبذلك تخلصنا منهم، وممن التف حولهم، وكذلك تخلصنا من جموع قريظة واشتفينا منهم، وتهديد الشاعر لهم بهذه الأبيات لا يعد مكرورا مع تهديد بالفتح، فهو هناك يتوعدهم بغزو مكة لأنهم يمنعون النبى وصحابته من دخولها، وهنا يتهددهم بالانتقام على مناصرة من يعاديهﷺ، والتهديد هناك مباشر وصريح، بيد أن التهديد هنا جاء بطريق التعريض، وهو بهذا أعمق أثرا، وأشد تخويفا من التصريح به، لأنه يخرجه من دائرة القول المحتمل للتنفيذ وعدمه، ويقدمه ومعه من الواقع شواهد صدقه والجد فيه.

وعلى أية حال فإن الشاعر قد صكّ أسماع المشركين فى خاتمة أبياته الإسلامية بمثل ما قرّعها به فى مطلعها من الوعيد والتهديد، والقصيدة قد حققت غرضها كما أنها أبانت حظ حسان من المهارة وسمو الفن الشعرى، بيد أنه قصر فى تشخيص موقف قريش الذى لامهم عليه، وذلك فى قوله:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

وذلك لأن ما يتهمهم به فى البيت هو التسوية بين من يهجو محمدا ومن يمدحه وينصره، ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا من نصر محمد وخذلانه فى موقف محايد، أو إن شئت فقل هو عدم المبالاة. وهذا التحديد غير دقيق ولم يصب المحز والصواب أنهم كانوا يقربون من يهجو محمدا، ويدنونه من مجالسهم، ويعدونه حليفا لهم، ويحاربون من يمدحه، ويتخذونه عدوا لدودا لهم، ولو أن الشاعر أظهر هذه الحقيقة، وأولاها همزة الإنكار، لكان دقيقا فى تحديد موقفهم، وكشف سوئه، ولكان ذلك أدل على استحقاقهم للتوبيخ والتقريع إلا إذا قيل: لقد كانت تلك غايته التى يتغياها، وسبيله التى يقصدها، ولكن العبادة لم تسعفه أو يحتمل كلام الشاعر على أن لومه لهم على الأمر الهين اليسير وهو عدم المبالاة، فالأولى أن يكون قد لامهم على ما هو أشد من ذلك وأنكى، وهو الانحياز والانعطاف إلى أعداء

محمد – عليه الصلاة والسلام – ولكن هذه الاحتمالات جميعها من المعاذير التى لا تقبلها المقاييس الأدبية.

تأثر القصيدة بعصرها ووقعها فى نفوس المسلمين:

إذا عاودنا قراءة القصيدة بأناة، ونظر ثاقب وجدناها تحمل بعض الملامح القوية للعصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة، كما أنها تدل دلالة جلية على تأثر الشاعر بالروح السائدة فى هذا العصر، حيث إن القصيدة لم تنس الوقائع والأحداث التاريخية التى مرت بحسان بن ثابت، حيث كانت حاضرة فى ذهنه، وقد أومأ على بعض جوانب هذه الأحداث ليستغلها بمهارة فى تحقيق غرضه من القصيدة، فأومأ إلى موقعتى [بدر الكبرى، وغزوة أحد]، ويهجو أبا سفيان ليسجل عليه ما وصم به من خزى وعار حيث لاذ بالفرار من المعارك لجبنه وخوره، كما ذكر يومىّ [بنى المصطلق، وقريظة] ليرعب قريشا، ويذكرهم بما لاقوا من شدة النكال، وعذاب النفس، والهزيمة النكراء، وحسن بلاء المسلمين فى هذه المواقع جميعها، والشاعر يعطى لنا صورة صادقة لما أومأنا إليه آنفاً من استبسال الجيش الإسلامى، وصدق عزيمة المسلمين فى خوض الحروب الدائرة بينهم وبين المشركين، والصورة التى رسمها الشاعر تهديدا لقريش، متنبئا بفتح مكة لم ينتزع عناصرها من الخيال، بل قبسها من الواقع، واستمدها من السوابق الحربية للمسلمين، وهذه العناصر المقبوسة من الواقع هى التى أكسبت نبوءة حسان فى تبشيره رسول الله – عليه الصلاة والسلام – بفتح مكة، وأنه سيدخلها من طريق كداء، ولذلك يروى أن رسول الله – عليه الصلاة والسلام – لما دخل مكة من كداء قال لأبى بكر – رضى الله عنه –: أنشدنى بعض أبيات حسان، ويعنى عدمنا خيلنا إن لم تروها.... كما جعلت القصيدة تجيئ مطابقة لما جرت به الأحداث يوم الفتح، وكأن فرسان المسلمين الذين قادهم [الزبير بن العوام] – رضى الله عنه – ودخلوا مكة من كداء كانوا يقومون ببيان عملى يشرحون به أبيات حسان، فتذكرها النبى ﷺ وطلب من أبى بكر إنشادها له، وهى أيضا تعبر عن تأصل الجانب الروحى فى قلوب المسلمين،

وتؤكد ثقتهم من نصر الله لهم، واعتقادهم الذى لا يخالجه ريب فى أنهم لا يقاتلون المشركين وحدهم، بل إن الله معهم بتثبيته لهم، ونصره إياهم، وقد عد القرآن الكريم التثبيت من عوامل النصر للمؤمنين، وسماه القرآن "روحا" والمقصود بالروح فى الآية الكريمة [التثبيت] قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[1].

فالمسلمون لا يخوضون هذه المعارك بقوتهم المادية فحسب، وإنما يخوضونها بالجانب العقدى، تساندهم القوة الربانية العليا من عزة الله لهم، ومصاحبة جبريل - عليه السلام - والملائكة التى تقاتل بين صفوفهم، كما حدث فى غزوة بدر الكبرى ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[2].

كما أن القصيدة تنبئ عن تبدل القيم الخلقية، والمثل الإنسانية فى نظر المسلمين، ويتجلى ذلك فى الأوصاف التى ذكرها الشاعر، وجعلها عنوانا لعظمة النبى عليه السلام، فهى معان جديدة، وقيم لم يكن يعرفها العرب فى مجتمعهم الجاهلى ولا شعراؤهم، فلما سطعت شمس الإسلام رفع منارها لهم، وصارت من المقاييس التى تقاس بها أقدار الرجال، وهى أيضا تشير إلى اتجاه الشعراء نحو القرآن ليقبسوا من أساليبه، وينسجوا على منوالها فى ألفاظهم وتعبيراتهم. والدليل على ذلك أسلوب حسان بن ثابت فى البيت الذى يهدد به قريشا وينذرها بالفتح إن لم يخلوا طريق المسلمين إلى مكة وهو:

فإمـــا تعرضـــوا عـــنا اعتمـــرنا ... وكـــان الفـــتح وانكـــشف الغطـــاء

والبيت الآخر الذى يوبخهم فيه على موقفهم من النبى ﷺ، فهو ينظر فيهما إلى قول الله سبحانه "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين"، وهو من الأساليب

---

(١) سورة المجادلة آية رقم (٢٢).

(٢) سورة الأنفال - آية رقم (١٢).

القرآنية التى ذكر العلماء أنه لم يسبق إليها، وهو لون من ألوان البلاغة التى تسمى لدى علماء البلاغة بـ[تجاهل العارف]، ومرماه البلاغى هو:

"التهكم، السخرية، والاستهزاء". ويمكن أن يكون مرماه وهدفه التنبيه على أمر مهم، وهو: "فإما تعرضوا عنا سنعتمر ونحقق هدفنا وهو فتح مكة المكرمة".

ولقد كان لهذه القصيدة وقع كبير فى نفوس المسلمين، وفى نفسية رسول الله عليه الصلاة والسلام، وبقى أثرها محتفظا بجماله، وعظيم أثره فى قلب النبى عليه السلام ونفوس الصحابة - رضى الله عنهم - إلى أن مات حسان، وليس أدل على ذلك من طلب رسول الله لأبى بكر أن ينشدها له حينما رأى مسرح العلميات الحربية يشرح القصيدة، ومن طيب أثرها فى نفوس المسلمين أنزلت حسان منزلة سامقة لدى النبى والمسلمين وكبار الصحابة الأجلاء، حتى إنها شفعت له فى مواقف كثيرة، وخلصته من محرجات كان حسان قد تورط فيها كحادثة الإفك الشهيرة، ولقد غضب عليه الرسول مرة، وهم بعقابه فاسترضاه حسان بقوله: يا رسول الله بأبى أنت وأمى: احفظ قولى:

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

فعفا عنه، ووهبه "سرين" أخت مارية القبطية، وهذا تكريم ما بعده تكريم لحسان بن ثابت حيث جعله النبى عديلا له فى المصاهرة، وسامحته وعفت عنه السيدة الفضلى (عائشة بنت أبى بكر) - رضى الله عنها - اشتراكه فى حادثة الإفك ومنعت الناس أن يذكروه بسوء حين مرت جنازته عليها، وكان حسان قد اعتذر لها بقوله:

حصان رزان ما تُزنّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
جليلة خير الناس دينا ومنصبًا ... فى نبىِّ الهُدى والمكرمات الفواضل[1]

---

(١) الديوان صـ١٨٨.

عقيلة حيٍّ من لؤيّ بن غالب ... كرام المساعى، مجدها غير زائلِ
مهذبة قد طيّب الله خِيَمها ... وطهّرها من كلّ سوء وباطلِ
فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتمُ ... فلا رفعتْ سوطى إلىّ أناملى
وإن الذى قد قيل ليس بلائطٍ ... بها الدهرَ بل قول امرئ فى ماحلِ
فكيف ووُدّى ما حييتُ ونصرتى ... لآل نبى الله زَيْنِ المحافِلِ
له رَتَبٌ عال على النّاس كلّهمْ ... تقاصَرُ عنه سورةُ المتطاولِ
رأيتكِ، ولْيغْفر لك الله حرّةٌ ... من المحصنات غيرَ ذاتِ غوائِلِ

ولما بلغ قوله: وتصبح عزثى من لحوم الغوافل

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: لكنك يا حسّان ما تصبح غرثان من لحومهن[1].

الحصان. العفيفة. الرزان. ذات الثبات والوقار والعفاف تزن - تتهم - غرثى - جائعة - الغوافل مفردها: غافلة، أى أنها لا ترتع فى أعراض الناس. العقيلة: السيدة الكريمة. الخيم الأصل - لائط - لازق - الماحل. من محل به إلى الأمير أى سعى به وكاده وأقرى عليه القول. رَتَبٌ. ما أشرف من الأرض وهى استعارة للمجد والشرف. سورة. وثبة. الغوافل. غافلة وهى الفساد والشر.

ولهذه القصيدة أيضا كان ابن عباس - رضى الله عنهما - يدافع عنه، ويحجز ألسن الناس عن الخوض فيه.

والسر فى أن القصيدة كان لها ذلك الأثر الجميل فى أنفس المسلمين جميعا وفى مقدمتهم رسول الله ﷺ: صدق القصيدة فيما تنبأت به من فتح مكة، وأنها قيلت فى وقت عصيب، كان للمفاجأة فيه أثر سيئ، والمسلمون حينذاك فى مسيس الحاجة إلى ما يشد عزائمهم، ويقوى هممهم، ويثبتهم أمام الأعداء، ويذهب عنهم هول

(١) رواه مسلم.

المفاجأة، فالقصيدة جاءت بمناسبة أحداث الحديبية، والمسلمون كانوا قد فارقوا المدينة، قاصدين مكة لغاية دينية، لم يتوقعوا الاشتباك فى حرب عسكرية، فخرجوا مسالمين، يرتدون ملابس الإحرام ويسوقون الهدى مصطحبين كل من أراد زيارة البيت من القبائل التى لم تدخل فى الإسلام ولكن المشركين فاجأوهم بالتصدى لهم، وقطع الطريق عليهم، ومنعهم من الطواف بالبيت، وجرت السفارة بين الفريقين مقترنة بالشائعات التى شاعت بمقتل عثمان - رضى الله عنه - وكان سفير النبى لدى القريشيين، وبذلك أصبح المسلمون فى موقف لا يحسدون عليه، فتأزم المشكلة قد يجرهم إلى حرب لم يتوقعوها، وليس هناك إعداد لها، وقد ثارت النفوس وغلت غلية المرجل، وهنا تجيئ أبيات حسان بن ثابت دواء ناجعا، وبلسما شافيا، للنفوس المضطربة، والقلوب المعذبة، فكانت الأبيات طاقة أمدت بفوحها أنفاس الأمل لدى المسلمين، وباقة جددت بنفحها أسباب الرجاء فى نجاة المؤمنين، لما ذكرتهم به من أنهم على الحق، وتصاحبهم القوة السماوية التى لا يمكن أن تتخلى عنهم أو أن تفارقهم، وأن تدارك الأمر من الممكنات، فإن لم يكن بالسلم فليكن بالحرب والإعداد لغزو مكة، والانتقام من طغاتها بالأسياف البتارة، وبذلك جاءت القصيدة كما أومأنا آنفا بلسما شافيا لا ينسى أثره حيث جاء فتح مكة، وصدق حسان فى نبوءته، وزاد أثر القصيدة عمقا فى قلوب المسلمين، ونقشت فى قلوبهم نقشاً لا ينمحى أثره، ولا تزول عذوبته.

القيمة الفنية للقصيدة:

لوحظ على حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فى قصيدته آنفة الذكر، انتقاله المقتضب من بكاء الديار إلى الغزل - ثم تقصيره فى تشخيص الجريمة التى قرع قريشا بسببها، ما عدا ذلك فإن الشواهد ناطقة بتأصل شاعريته، وتمكنه من فنه كل التمكن، وتمام التمكن، يستبين ذلك لنا من حسن تصرفه فى المعانى والأفكار، وأيضا من وضوح العبارة، ودقته فى تأدية المراد، والذى يبدو فى أفكاره ومعانيه أن الشاعر أحسن استغلالها، واختيارها، فهو لا يشغل نفسه بكل المعانى التى تتصل

بموضوع معين اتصالاً قوياً أو ضعيفاً، وإنما يضعها فى ميزان الاختيار، وينتقى أقواها ارتباطاً بموضوعه، وقد يكون قليلاً، ثم يتصرف فى هذا القليل المختار تصرفًا ماهرًا يوضح غرضه، ويغنيه عن إطالة القول بما ترك من معان، مثال ذلك: الغزل فى أبياته الجاهلية، فقد اكتفى فى الأبيات بالطيف والريق، وبشاعريته الفذة، وامتلاكه أدوات الشاعر الماهر استطاع أن يضمن هذه الأبيات القليلة الكثير، مما يحكى عن تمكن الحب من شغاف القلب وكذلك صنيعه فى هجاء (أبى سفيان بن الحارث) فى أبياته الإسلامية، فقد ترك الشاعر الكثير من معانى الهجاء التى كان فى مكنته أن يجرح بها أبا سفيان ويسيئ إليه، واكتفى بمعان معينة – مع قلتها – مكنته من هدمه والقضاء عليه، ومعرفته بوجوه التصرف الواعى فى المعانى والأفكار نراه قد اكتفى بذكر الحقائق المجردة دون مبالغة أو تهويل، وبذلك كان لها أجمل وقع، وأبلغ تأثير، يتضح لنا ذلك فى هجائه لأبى سفيان، حيث استطاع أن يدهم فيه شخصية المحارب بإيماءة بارعة إلى إحدى الحقائق الثابتة، والتى لا يستطيع أبو سفيان إنكارها، أو التملص منها وهى فراره من أسياف المسلمين فى وقعة بدر الكبرى، وبتلك الإشارة سجل عليه عار الخور والجبن، مستغنيا عن كل ما يقال بعد ذلك من عيوب تخرج الرجل من عداد أهل الحرب.

الأفكار التى حوتها القصيدة:

والأفكار التى حوتها القصيدة، ودارت فى فلكها أنها جاءت محكمة الترتيب والتنسيق، فلا يتقدم بعضها على بعض، إلا بحسب ما يقتضيه التسلسل الذهنى، والسابق فيها يسلمنا إلى اللاحق، ويجيئ كل منها عقيب الآخر، فهو يتطلبه ويقتضيه، ونتيجة ذلك أنه ظهر فى أبيات كل موضوع من التسلسل والترابط ما يفسده التقديم أو التأخير، وعبارة القصيدة فيها من الوضوح والسلاسة والنصوع والعذوبة ما لا يحتاج إلى برهان، كما أن فيها من الدقة والإحكام ما أكسبها قوة فى الأداء، ودقة فائقة على إبراز المعانى بكل خصائصها، والوصول بها إلى الغاية التى يتغياها دون حاجة إلى إعادة العرض بصورة أخرى، أو الاستعانة على تجلية المعنى

بعبارة تالية، والمتأمل فى أبيات القصيدة لا يجد فيها معنى واحدا مكرورا، ولا يجد أيضا عبارتين تعاونتا على معنى واحد، فهو يؤدى المعنى واضحا من أول وهلة، فلا يحتاج إلى إطالة أو تكرار. ومما أعانه على ذلك براعته فى العرض، ومهارته فى استغلال الوسائل البيانية، وإحكام صنعه لها، ولا يغض من شأن القصيدة أن جاء أكثرها من الصور الجزئية اليسيرة التى تتجلى فى مظهر من التشبيه، أو المجاز المفرد، أو الكناية فقد أغنت كل واحدة من هذه فى مكانها ما لا تعنيه العبارات المطولة، كما أنها أبرزت المعنى الجزئى الذى تعبر عنه فى صورة دقيقة موحية بكثرة كاثرة من الأحاسيس والانفعالات، وتؤثر بذلك فى محيط المعنى العام، وحسبه دليلا على براعته فى التصوير تلك الصورة الرائعة التى رسم فيها الغزو المروع، وما أعد له من فرسان، وسلاح وخيل، وما يجرى فيه من اندفاع واستبسال وسرعة ومتابعة، وما يصحبه من رعب وهلع، وما ينتهى إليه من نهايات مروعة ينفطر لها القلب، ويذهل لها اللب وقد جاء ذلك فى أبيات قليلة. ومن الدقائق الفنية فى عبارة القصيدة ذلك الذى نشاهده من التنويع فى مسالك التعبير، ولا نعنى من ذلك ما هو واضح من تلوين الأساليب بألوان من الجمل الخبرية والإنشائية، فذلك أمر سهل، وإن كان طيب الأثر فى تنشيط السامع وإيقاظه، وإنما نقصد به ضرباً آخر من التلوين فيه دقة، ولا يستطاع ذلك إلا بحذق ومهارة، كما يتجلى ذلك فى تنقل الشاعر بين التعبيرات المباشرة وغير المباشرة، فالمباشرة هى التى يواجهك فيها المتكلم بما يريد، وغير المباشرة هى التى لا يصارحك فيها بمقصوده، وإنما يلقى إليك من الكلام ما يوحى بهذا المقصود، معتمدا فى ذلك على ذكائك، وفطنتك، وهذا ما فعله حسان رضى الله عنه، فهو على حين يسلك المسلك الأول فى غير موطن من القصيدة، نجده يختار المسلك الآخر، وقد رأينا كيف استطاع بما ذكر من أحوال الديار المثيرة للوعة، وكوامن الشجن أن يجعلنا نشعر بحزنه عليها، بل ويجعلنا نشاركه شجونه وأحزانه، دون مصارحة منه أنه حزين، أو يطلب منا إسعاده، حدث [لقريظة وجذيمة] دون أن يقول لهم (سنفعل بكم كذا، وسنصنع بكم كذا)، والقصيدة باستثناء المأخذين السابقين. تحمل من سمات البراعة، ودقة الصنعة ما يرجح كفتها فى الميزان.

مكانة القصيدة من شعر حسان:

ووضع القصيدة من شعر حسان يقودنا إلى الحديث عن كل من شطريها على حدة، فالشطر الجاهلى يمثل شعر حسان قبل الإسلام، وقد كان فحلا من فحول الجاهلية، وشعره فى هذه الحقبة من أجود الشعر بشهادة (الأصمعى) وهو أشعر أهل القرى لدى (ابن سلام الجمحى) وطاقته القادرة المؤثرة هى التى حدت به إلى كثرة المفاخرة بلسانه كما وقع ذلك فى شعره، دون معارضة من أحد أو إنكار عليه، وهى التى مكّنته من خوض الأسواق والمحافل يزاحم كبار الشعراء، كما أن مدائحه الرائعة فتحت له أبواب ملوك غساسنة الشام، ومناذرة الحيرة، وقدمته أحيانا فى الجوائز على (الأعشى والنابغة)، وفخره أكسبه التفوق والانتصار على مزاحميه ومنهم (قيس بن الخطيم) فى الصراع القبلى بين الأوس والخزرج، ومن تلك الألوان التى تثبت تفوقه ومقدرته الشعرية صدر هذه القصيدة. أما بقية أبياتها، فهى بلا ريب من أروع ما قاله حسان فى الإسلام، ومن أحفلها بسمات الشاعرية البارعة، إذا فما قيمة هذه القصيدة بالنسبة إلى شعره الجاهلى؟ قد جرى القول بين النقاد، ودارس أدب حسان على أن شعره فى الجاهلية مستدلين على ذلك أن حسان أدرك الإسلام فى سن متقدمة، فنضحت الشيخوخة الضعف والوهن فى شعره، واضطراره إلى الارتجال فى الأغلب الأعم من مواقفه الإسلامية انحدر به عن مستواه الأسبق، ولم يمكنه من تشذيب شعره وتنقيحه، وأن انكفافه بخير الإسلام عن غواية الجاهلية وشرورها أنزله دون منزلته، وأورثه الضعف فى شعره، لأن الشعر يقوى فى الشر، وهؤلاء يستدلون على مقولتهم هذه بقول الأصمعى: (الشعر نكد، بابه الشر، فإذا دخل فى الخير ضعف، ولأن. هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره)، ثم ما نسب إلى حسان من أنه سئل عن ضعف شعره فى الإسلام، فقال: (إن الإسلام يحجز عن الكذب، والشعر يزينه الكذب)، والواقع أن هذا الحكم غير مطرد على الرغم مما قدم لتبريره من علل وأسباب، لأنها أسباب وعلل يستحيل أن تطرد، ولا تثبت على التمحيص، وفى وسعنا أن ننقضها كلها أو

على الأقل بعض هذه العلل وتلك الأسباب، فنستطيع أن نبطل التلازم بين ضعف الشعر مع كبر السن، فكم من شاعر لم يزده تقدم سنه إلا تكاملا ونضجا فى شعره، والدليل على ذلك النوابغ الذين لم يظهر نجمهم إلا بعد أن تقدمت بهم السن، ولذلك سموا بهذا الاسم ومنهم (النابغة الذبيانى)، وكذلك أمير الشعراء (أحمد شوقى)، أما معارضتنا لمقولة بعض النقاد أن من أسباب ضعف شعر حسان (الارتجال)، حيث إن الارتجال لا يعوق الشاعر عن الإجادة مادام منفعلا بالموقف الذى تهيأ للإنشاد فيه ودليلنا على ذلك الشاعر نفسه، حيث إن له قصائد ومقطوعات مرتجلة، ومع ذلك لم يتخونه التوفيق فيها، ولم يلحقها وهن ولا فتور، والدليل على ذلك قصيدته التى بين أيدينا. أما قضية الخير والشر، فهو قضية خاسرة، فليس معقولا ولا مقبولاً أن تكون القوة والنجاح فيه مقصوراً على موضوعات معينة، ويكون السقوط والضعف حليفين لموضوعات أخر، ولو سلمنا بهذا الرأى؛ لأصبح لزاماً علينا أن نشطر نتاج كل شاعر بحسب موضوعاته وتنوعها بين الشر والخير إلى شطرين: شطر قوى، وشطر ضعيف. ولا ينتفى أن يكون للخير شاعر مبرز ولا نمحى من سجل الخالدين أولئك الشعراء الذين لم يفتحوا للشر بابا فى أشعارهم، ولبطلت حقيقة ثابتة يعلمها كل البشر من أمر حسان، فمن المسلمات أنه ظفر بخصومه فى الإسلام وأخرس ألسنتهم، كما انتصر على أعدائه فى الجاهلية وأفحمهم، فهل نقول إن انتصاره فى العهدين كان بقوة شعره، وشدة تأثيره، أم نقول إنه كان فى الجاهلية بقوة الشاعرية، وكان فى الإسلام بضعفها مع الصدق.؟ إننا بذلك نقول قولاً عجبا. ولا ننكر أن يكون دعاء النبى ﷺ له، ووعده إياه بتأييد روح القدس، كانا من أهم أسباب نجاحه وظفره، وانتصاره على خصومه، ونؤمن بأنه بالنصر على خصومه ملأ نفسه بالثقة، فخاض المعارك ضد الأعداء قوى الروح، وسيطر على الميدان بنفس تملؤها الطمأنينة، وذهن متقد يقظان، كذلك كانت استجابة الله سبحانه لدعاء نبيه – عليه السلام – لحسان بن ثابت – رضى الله عنه توفيقا له يبصره بأسباب القوة، ويهديه سبل التأثير، فيودع

ذلك شعره، والقصة التى سئل فيها الشاعر وأجاب عرضة للطعن والتجريح، فيكف يجيب هذا الجواب الذى يجعل الكذب عماد الشاعرية الحقيقية.؟ ليس بمعقول أن يكون هذا جواب (حسان بن ثابت) لأنه يناقض مذهبه فى الشعر، فهو يدين بمذهب الصدق، ويسجل ذلك فى قوله الذائع:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس إن كيساً وإن حُمُقا[1]

وإن أشعر الشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقَا

ومع ذلك فإن اصطباغ هذا الحكم بصبغة الشمول مما يضيع قيمته فى نظرنا، فليس فى أحكام النقد الأدبى أدنى إلى التخليط والخطأ، وأنأى من الدقة والصواب، من حكم النقد الأدبى أدنى إلى التخليط والخطأ، وأنأى عن الدقة والصواب، من حكم عام يرسله صاحبه، بدون احتياط أو استثناء، والحكم العادل الدقيق فى تقويم الآثار الأدبية هو الذى يؤخذ من داخل الأثر نفسه، ويقاس بما تضمنته أبياته من وجوه البناء الصحيح، وما تحقق به أو ضاع من أهدافه وغاياته، بغض النظر عن قدم زمانه أو حداثته، ذينكم هو الطريق السوى فى نقد الآثار الأدبية، وهو ما يجب أن ينهج لدى تقويم شعر حسان فى الجاهلية والإسلام، فإذا كان النقاد قد سلكوه حين ارتفعوا بأشعاره الجاهلية، وإذا كانوا قد حكموا لها بالقوة لأنها استكملت الوسائل الفنية، وحققت ما نيط بها من أغراض، فمنطق العدل يقتضينا أن نسوى بها كل ما استوفى هذه الأسباب من شعره الإسلامى ولقد رأينا حال دراستنا للأبيات التى بين أيدينا أن حسان لم يقصر فى بنائها الفنى، وأنه لم ينقطع بها دون الغاية التى رصدها لها، وهى (الإرهاب بالتهديد)، والهجاء والتحطيم.. فهل نحرم الأبيات ما استحقته من وصف القوة، ثم ندمغها بالسقوط والضعف لأن الأبيات قالها بعد إسلامه؟. لا يمكن بالطبع أن نغمطها حقها، لمجرد أن الأبيات قالها حسان بعد إسلامه.

---

(١) الديوان صـ ١٦٩. الكيس. العقل والظرف والفطنة. الحمق. الجهل.

شعر حسان الإسلامى فى الميزان:

نسب إلى حسان شعر إسلامى كثير، نبه النقاد إلى ما فيه من شعر منحول وضعه القصاص، وحملوه عليه، وقد ورد ذلك فى كتب السير وبعض المصادر الأدبية، وهذا الشعر لا نستطيع أن نأخذ به الشاعر، فلا نحكم له بجودته، ولا نأخذ عليه رداءته، فالشعر الذى يصطبغ بصبغة حسان، ونجد طابعه فيه يكون ذلك من شعره، وما عاداه فهو منفى عنه، دون توسع فى دعوى الانتحال بخداع من ظاهره، ونستبعد من شعره ما يصح استغلاله فى اتجاهات حزبية سياسية، فهذا منطق غير سديد، واتجاه مخدوع، فإن كان فى تمجيد البطولة لبعض الصحابة أو فى البكاء لما حل بهم، قيل إن أقوامهم صنعوه على لسان حسان، وإن كان فى هجاء بعض الأفراد والقبائل، قيل إن أعداءهم اختلقوه على حسان ليشهروا بهم، وهكذا إلى أن ينفد شعر حسان حيث إنه لا يخلو فى أغلب مواقفه الإسلامية من أحد الاتجاهين، وما صح نسبته من أشعاره الإسلامية، فإن فيه القوى المحكم، وأيضا تجد فيه الضعيف اللين. ويرجع ذلك إلى استعداده النفسى والموضوعات التى يتناولها، من حيث النوع والغرض، فإذا اضطر فى متابعة الأحداث المتلاحقة أن يقول الشعر وهو فاتر النفس ضعيف النشاط فإنه حينئذ يضعف، لأن القريحة كليلة، أصابها الوهن والفتور. وجدير بالذكر هنا تلك الظاهرة الغريبة التى تتجلى بوضوح فى شعر كل من عاصر الرسول عليه السلام من الشعراء، ومنهم حسان بن ثابت، أن شعرهم يجيئ ضعيفا فى كل ما يتصل بشخص رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وخاصة إذا أفردوا القول فيه عن القول فى جماعة المسلمين، فإن كل ما يقوله الشعراء من مدائح ومَرَاثٍ، لا يمكن أن يرتفع إلى مقام رسول الله السامى، ولا يدانيه، ولعل ذلك كان بتدبير من حكمة الله حتى لا يقع فى الأوهام أن أبواق الدعاية - بلغة العصر الحديث، وأجهزة الإعلام وأقواها حينئذ الشعر - كانت من أسباب عظمته، وعلو شأنه ﷺ، ولعل تهيب الشعراء من عظمته وجلاله له أثر على نفوسهم، فأوقعها فى العجز، ولم يمكنها من إجادة القول فيه، أو لعل الجلال والعظمة كان غامرا على مشاعرهم، فلم تستطع أن تدرك كنهها، ولا أن تستبين سرها، أو لعل ذلك راجع إلى أن رسول الله ﷺ كان لا يحب المديح، فقد كان - عليه

الصلاة والسلام ـ يحثو التراب فى وجوه المداحين وقد مدح بعض الصحابة أخًا له فى الإسلام أمام رسول الله ﷺ فقال له عليه السلام: (لقد قطعت عنق صاحبك)، وخاصة أنه – عليه الصلاة والسلام – صاحب الخلق العظيم، وامتدحه ربه عز وجل بارئ السماوات والأرض، فليس بحاجة إلى مديح الشعراء، أو أبواق الدعاية، والإعلام التى يعتمد عليها الرؤساء والسلاطين فى توطيد حكمهم، وإذاعة أعمالهم، والإشادة بهم فى المحافل. أما إذا سلمت نفس الشاعر من فتورها، وكان فى موقف يثير شاعريته، ويوقظ حسه، وتنفعل به نفسه فإنه حينئذ يوفق فى القول، ويقوى فى الشاعرية، فإذا اجتمع له من ثورة النفس، ونشاط الشاعرية أن كان يعالج أمرا مألوف العلاج من قبل، بلغ من القوة ما أراد، سواء أكان مرتجلا، أم غير مرتجل، وما قاله حسان فى الإشادة بالنصر والفخر، والهجاء والتهديد، ورثاء شهداء المسلمين، فهو من الشعر الرصين، لأنه يكون فى هذه المواقف ثائر النفس، صادق العاطفة، متحمسًا لما يقول، ومؤمنا به، فهى موضوعات تهيج المشاعر وله فى تناولها دربة ومران. ولذلك نقرر أن أبياته آنفة الذكر لا تنفرد من بين أشعاره الإسلامية بوصف القوة، ولا تستقل وحدها بحكم التعادل مع شعره الجاهلى من حيث استواء البناء الشعرى، مهارة التصرف الفنى، والقدرة على التأثير وبلوغ الهدف، بل وتشاركها فى هذا الأمر قصائد ومقطوعات كان التوفيق فيها حليف الشاعر حسان بن ثابت، ومن روائع قصائده هذه: قصيدته التى يستهلها بقوله:

إن الـذوائب مـن فهـر وإخـوتهم ... قـد بيـنّوا سـنة للـناس تتـبعُ[1]

يرضىَ بهـا كـلُّ مـن كانـت سـريرته ... تقـوى الإلـه وبالأمـر الـذى شرعُوا

قـوم إذا حاربـوا ضـرّوا عـدوّهمُ ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعُوا

سـجية تلـك فـيهم غـيرُ محدثـة ... إن الخلائق، فاعلم، شرُّها البدعُ

وقد ارتجلها ليعارض بها قصيدة الشاعر (الزبرقان بن بدر) شاعر وفد تميم حين

---

(١) الديوان صـ١٤٥ دار صادر – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

قدموا على الرسول عام الوفادة وهو العام التاسع للهجرة وقد وفق حسان فى الرد عليه، كما وفق أيضا (ثابت بن قيس بن شماس الخرزمى) فى الرد على خطيب الوفد، وكان توفيقهما مفتاح الخير لبنى تميم، فعدوه تأييدا من الله للرسول - عليه الصلاة والسلام - وبسببه اهتدوا إلى الإسلام. ومن روائع شعر حسان قصيدته التى يفخر فيها بمساعى قومه فى الجاهلية، وبمؤازرتهم للنبى وانتصاراتهم على قريش فى الإسلام قوله:

أهاجك بالبيداء رسم المنزل؟ نعم، قد عفاها كل أسحم هاطلِ[1]

وجرّت عليها الرّامات ذيولها فلم يبق منها غير أشعث ماثلِ

ديارُ التى راقَ الفؤادَ دلاَلُها وعزّ علينا أن تجودَ بنائلِ

لها عين كحلاءِ المدامع مطفل تُراعى مقاماً يرتعى بالخمائلِ

الاسحم: السحاب الأسود. الهاطل: الممطر. الرّامات: الرّياح التى تثير التراب متدفن به الآثار: الأشعث: الوتد. الماثل: المنتصب. كحلاء المدامع. الظبية. المطفل: ذات الطفل. الخمائل: واحدته خميلة، وهو من الرمل ما أنبت الشجرة.

ومنها قصيدته التى يباهى فيها بمثل ما سبق، ويزيد عليه مادحه الخاصة، وقد استهلها بقوله:

الأخيل: طائر مسئوم، وهو المسمى بالشقراق.

تبلت: أسقمته وذهبت بنقله. الخريدة: الحبيبة الساكنة وأراد بالبارد. ثغرها. كالمسك - شبه ريق ثغرها بالمسك العاتق: الخمر.

لكِ الخيرُ، غضىّ اللومَ عنى، فإننّى أحبُّ من الأخلاق ما كان أجملاَ[2]

ذرينى وعلمى بالأمور وشيمتى فما طائرى يوماً عليكِ بأخيَلا

---

(١) الديوان صـ١٨٢ دار صادر - بيروت - لبنان.

(٢) ذاته صـ ٢٠٦.

فإن كنت لا منّى، ولا من خليقى فمنكِ الذى أمسّى عن الخير أعزلاً

ومنها قصيدته التى يهجو فيها (الحارث بن هشام المخزومى) ويعيره بالفرار فى معركة بدر تاركا أخاه (أبا جهل) تنوشه أسياف المسلمين فيقول:

تبلت فؤادكَ فى المنام خريدةٌ تسقى الضجيعُ ببارد بسّامِ[1]
كالمسك تخلِطُهُ بماء سحابة أو عاتِقٍ كدم الذبيح مُلام

وقد أوجع حسان (الحارث) بهجائه فيها، وبرع فى تعبيره والسخرية به والتهكم منه حتى اضطر أن يعتذر عن فراره فى ذلك اليوم، اعتذارا قد يأباه الخلق العربى، وتنكره الفروسية، والطبع الشجاعِ، بيد أنه لا يخلو من البراعة والتفنن فى التماس المعاذير، فيقول الحارث:

الله يعلم ما تركت قالتهم حتى علوا فرسى بأشقر مزيد
وشممت ريح الموت من تلقائهم فى مأزق والخيل لم تتبدّد
وعلمت أنى إن أقاتل واحداً أقتل، ولا يضْرُرْ عدوى مشهدى
فصددت عنهم، والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

فهو لا ينكر الفرار، ولكنه يعتذر عنه، فيشهد الله على أنه لم يترك قتال المسلمين إلا بعد أن أثخنوا جراحه، وجللوا فرسه بدمه، وبعد أن أحس رائحة الموت تنبعث إليه من ناحيتهم، وتملأ خياشيمه فى مضيق تحاصره الخيل فيه، وبعد تأكده من أن استمراره فى القتال وحيدا لابد أن ينتهى بمصرعه، دون أن يلحقهم أذى أو ضرر، فعندئذ ولى عنهم وفر، تاركاً أحبابه بينهم، مؤملا أن ينتقم منهم فى لقاء آخر يستعد له. وهيهات أن تغسل عن براعة الاعتذار، عار الخوار والفرار. ومنها قصيدته التى يخفّف بها وقع النّهاية الأليمة فى غزاة "أحد"، وذلك بتسجيل ما كان فى الجولة الأولى من حسن بلاء المسلمين، وشدة نيلهم من المشركين ومطلعها:

---

(١) ذاته صـ ٢١٤.

مــنعَ الــنّومَ بالعــشاء الهمــومُ وخــيال إذا تغــورت الــنّجومُ
مــن حبيب أصــابَ قلـبك مــنهُ سَــقَمٌ، فهــو داخــلٌ مكــتُومُ(١)

ومنها قصيدته التى فاخر فيها "بنى دارم من تميم" وذلك عام الوفادة، ويستهلها بقوله:

هـل المجد إلا السؤدد العرد والنّدى وجـاه الملـوك، واحـتمال العظـائم
قــصرنا وآويــنا النبــى محمــدا على أنـفِ راض مـن معـدّ وراغـم
بحــىّ حَــريد أصــله وذمــارُه يحابـيه اَلجَـوْلان وسـط الأعـاجم
نـصرناه لمـا حـلّ وسـط رجالـنا بأسـيافنا مـن كـل بـاغ وظـالم
ونحـن ضـربنا الـنّاس حـىَّ تـتابعوا علـى ديـنه بالمـرهفات الـصّوارم
ونحـن وَلَـدْنا مـن قـريش عظـيمها ولـدنا نبـىّ الخـير مـن آل هاشـم(٢)

وختاماً.. رضى الله عن سيدنا "حسان بن ثابت"، ودعوته، وجزاه خير الجزاء.

---

(١) الديوان صـ٢٢٤. تغورت النجوم. غابت.

(٢) الديوان صـ٢٢٩.

الوفادة: يوم وفود نبى تميم على النبى عليه السلام. القوُد: القديم الحريد: المنفرد عن القبيلة، وأراد بالأعاجم: آل غسّان لأن منازلهم فى الجولان. المغانم. ما فاء للمسلمين من الغنائم دون حرب يعنى أن بنى النجار ولدت أم عبد المطلب جد النبى عليه السلام.

مفاخرة بين الزبرقان وحسان بن ثابت
"رضى الله عنه"

وكان قد وفد على رسول الله ﷺ وفد "بنى تميم" عام الوفود، وكان ذلك بعد فتح مكة، وفيهم عطارد بن حاجب بن زرارة، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، ونعيم بن زيد، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، والأقرع بن حابس (فى لفهّم ولفيفهم) ودخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد؛ فتأذى رسول الله ﷺ من صياحهم. وفى ذلك نزل قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ثم خرج إليهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - فقالوا: يا محمد: جئناك لنفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: قد أذنت لخطيبكم، فليقل، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل، وهو أهله الذى جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما نفعل منها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عدداً، وأشده عدة، فمن مثلنا فى الناس.؟

ألسنا برءوس الناس، وأولى فضلهم.؟ فمن فاخرنا فليعدد مثلما عددناه وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنّا تنحينا عن الإكثار. وأقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس" فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس الخزرجى: قم

---

(١) سورة الحجرات الآية رقم "٤ ، ٥".

فأجب الرجل فى خطبته، فقام ثابت بن قيس فقال: الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شئ قط إلا من فعله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا، أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه، وكان خيرة العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوو رحمه، أكرم الناس أحسابا، وأحسنهم وجوَها، وخير الناس فعالا ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب الله حين دعاه رسول الله ﷺ فنحن أنصار الله، ووزراء رسول الله، فقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله، متع بماله وبه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول هذا، واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.؟ فقام الزبرقان بن بدر التميمى، فقال:

نحن الكرام فلا حىٌّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا يقسم الربعُ[1]

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبعُ

ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزعُ

ثم ترى الناس تأتينا ثراتهم ... من كل أرض هويا ثم نصطنع

فننحر الكوم عبطا فى أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلى حى تفاخرهم ... إلا استقادوا وكانوا الرأس يقتطع

إنا أبينا ولم يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فمن يقادرنا فى ذاك يعرفنا ... فيرجع القوم والأخبار تستمع

---

(١) انظر الديوان صـ١٤٤.

الربع: أى ربع الغنيمة (وكان يأخذه الرئيس فقى الجاهلية).

يؤنس: يرى. القزع: قطع الغيم. أراد أنهم يطعمون فى القحط

هويا: مسرعين نصطنع: أى نصنع المعروف

الأرومة: الأصل استقادوا: أعطوا مقادتهم.

وكان حسان بن ثابت غائبا، فبعث إليه رسول الله ﷺ. قال حسان فلما جاءنى رسوله فأخبرنى أنه إنما دعانى لأجيب شاعر بنى تميم، خرجت إلى رسول الله - عليه السلام وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا ... على ألف راض مَعَدٍّ وراغمِ
منعناه لما حل وسط بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم

قال: فلما انتهيت إلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وقام شاعر القوم فقال ما قال، عرضت فى قوله وقلت على نحو مما قال، فلما فرغ الزبرقان بن بدر من قوله: قال رسول الله ﷺ - لحسان بن ثابت - رضى الله عنه: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فقال حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إنَّ الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
ولا يضنون عن مولى بفضلهم ... ولا يصيبهم فى مطمع طبع
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم ... فى فضل أحلامهم عن ذاك متسعُ
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطبعون، ولا يرديهم الطمعُ
كم من صديق لهم نالوا كرامته ... ومن عدو عليهم جاهد جدعواُ
أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنه وما نزعُوا
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم ... أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم ... أهل الصليب ومن كانت له البيعُ

خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منُعوا

فإن فى حربهم ـ فاترك عدواتهم ـ ... شراً يخاض عليه الصاب والسلعُ

نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعواُ

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسد ببيشة فى أرساغها فدع

إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

أهدى لهم مدحى قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صنع

فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جدّ بالناس جد القول أو شمعوا[1]

فلما فرغ حسان بن ثابت – رضى الله عنه – من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبى إن هذا الرجل، ويعنى رسول الله – عليه الصلاة والسلام – لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، ومنحهم النبى – عليه الصلاة والسلام– جوائز عظيمة.

الأفكار التى انتظمتها القصيدة:

أولاً: الرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار، قد بينوا للناس طرق الخير.

ثانيا: يرضى بمبادئهم القويمة كل من صفت نفسه وطهرت سريرته.

ثالثا: إن هؤلاء السادة الأشراف صُبُرٌ فى الحرب، صُدُقٌ لدى اللقاء، كما أنهم أهل مروءة، وكرم وإحسان فى السلم.

رابعا: أنه ليس من شيمتهم الزهو، والعجب، والفخر إذا ما أظفرهم الله بعدوهم، وانتصروا عليه، كما أنه لا يصيبهم الذعر، أو الهلع والخوف إذا ما ابتلوا بالهزيمة.

---

(١) انظر الديوان صـ١٤٥ وما بعدها ط دار صادر – بيروت – لبنان بدون تاريخ.

ما وقعوا: يريد أنهم أعزة – الطيع: الوسخ والدنس وبعوا: أقاموا – الصبا والسلع: ثجرمر – المكتنع: الدانى القريب – بيشه: مأسدة وهو الآن اسم لبلد بالمملكة العربية السعودية – القدع: زوال الرسخ فى اليد إلى وحشيها – الذرع: ولد البقرة الوحشية – شمعوا: مزحوا.

"بأبى وأمّى"

قال حسّان بن ثابت – رضى الله عنه – يرثى النبى ﷺ:

مـا بَـالُ عَيـنكَ لا تَـنَامُ كَأَنّمَـا ... كُحلَـتْ مآقـيها بكُحْـلِ الأرْمَـد[1]

جَزَعاً على المَهْدىّ، أَصْبَحَ ثَاوياً ... يـا خَير مَنْ وَطِئَ الحصَى لاَ تبعَدِ

جَنْبِى يقيكَ التُّرْبَ لهْفى لَيْتنى ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فى بَقيعِ الغَرْقَدِ

بأبـى وأُمّـى مَـنْ شَـهِدْتُ وفَاتَـهُ ... فـى يَـوْمِ الاثْـنَينِ النَّبىُّ المُهْتدى

فظللـت بَعْـدَ وَفَاتِـهِ مُتَبَلّداً ... يـا لَهْـفَ نَفسى لَيْتَنـى لم أُولَـدِ

أأُقِـيمُ بَعْـدَكَ بالَمدينَةِ بَيْـنَهمْ؟ ... يـا لَيْتَنـى صُبّحْتُ سَمَّ الأسْـوَدِ

أوْ حَـلَّ أمْـر اللهِ فينَا عَـاجِلاً ... فـى رَوْحَـة مـنْ يوْمِنا أوْفى غَـد

فَـتَقُومَ سَـاعَتُنَا فَنَلْقَـى طَيّـباً ... مَحْـضاً ضَـرَائِبُه كَـريمَ المَـتحد

يَـا بكْـرَ آمِـنَةَ المـبُارَك ذِكْـرُهُ ... وَلـدَتْك مُحْـصنَةً بِـسَعْدِ الأسْـعُدِ

نُـوراً أَضَـاءَ علـى البَـرِيَّةِ كُلِّهـا ... مَـنْ يُهْـدَ للـنّورِ الْمـبَارَكِ يَهْـتَدِ

يَـا رَبِّ! فاجْمَعْـنا مَعـاً ونبيّـنا ... فـى جَـنَّة تَثْنـى عُـيونَ الحُـسّدِ

فـى جَـنّةِ الفِـرْدَوْسِ واكتُـبْها لَـنَا ... يـاَ ذَا الجَـلالِ وذا العُـلا وَالـسّؤدَدِ

واللهِ أسْـمَعُ مـا بَقِـيتُ بهالِـك ... إلاّ بَكَـيْتُ عَلـى النّبـىّ مُحَمّـدِ

يـاَ وَيْـحَ أنْـصارِ النّبِّـى وَرَهْطِـهِ ... بَعْـدِ المُغـيَّبِ فـى سَـواءَ المَلْحَـد

(١) الديوان صـ ٥٧ ط دار صادر – بيروت – لبنان

١ – أغيد: ناعم متين.

٢ – متبلداً: متحيراً.

ضَاقَتْ بالأَنْصَارِ البلادُ فأصْبحتْ | سُوداً وُجُوهُهُمُ كَلَوْنِ الإثْمِدِ
وَلَقَدْ وَلَدْنَاهُ وَفِينَا قَبْرُهُ | وَفُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنا لمْ يُجْمَدِ
وَاللهُ أكْرَمَنا بِهِ وهَدَى بِهِ | أنْصارَهُ فى كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ
صَلّى الإلهُ ومَنْ يَحُفُّ بعَرْشِهِ | والطّيِّبُونَ عَلى المُبارَكِ أحْمَدِ
فَرِحتْ نصارَ يثربٍ ويهودُها | لَمّا تَوارَى فى الضّريحِ المُلحَدِ(١)

الدراسةَ والتحليل:

يقول الشاعر حسان بن ثابت – رضى الله عنه – إنه لم ينم جزعاً وتفجعاً على رسول الله ﷺ الذى ثوى، ويرجو من الرسول عليه السلام ألاّ ينأى عنه، فهو يقيه الترب بوجهه، ثم يقول متلهفاً، حزيناً باكيا، متمنياً الموت لنفسه، ويعيش النبى- عليه الصلاة والسلام – ولا يقف حسان عند هذا الحد بل هو يفديه بأبيه وأمه متسائلاً هل يستطيع الإقامة بعده فى المدينة المنورة؟ متمنياً لو كان لدغه ثعبان أسود فيموت سريعاً، أو يحل فيه قضاء الله عز وجل وتقوم القيامة كى يحشر الناس ويقوموا من قبورهم ليلتقى بمحمد ﷺ وحزبه ثم يتوجه الشاعر إلى الرسول عليه السلام ليذكر كيف كانت والدته ﷺ يمناً وبركة، ونوراً يضئ للبشرية جمعها، وليهتدى بنوره السالكون الحيارى. ثم نرى حسان يضرع إلى ربه أن يجمعه مع النبى – عليه الصلاة والسلام – فى جنة الفردوس، راجياً من الله أن يكتبها له فإنه

---

(١) الديوان صـ٥٨.
١- أصبحت: سقيت صباحاً.
٢- الضرائب، الواحدة ضريبة: الطبيعة والسحية. المختد: الأصل. المآقى: مجارى الدموع من العين الأرمد: المريض بالرّمد. بقيع الفرقد: مدافن المدينة.
٣- تثنى: ترد وتدفع. بأبى وأمّى. أفتديك بأبى وأمّى. يوم الاثنين هو يوم وفاة النبى عليه السلام المحصنة. العفيفة. سعد الأسعد. المراد سيد السُّعود وهو نجم يعنى ولدته آمنة بنت وهب باليمن والبركة. تغنى. تصرف وتمنع.
٤- الإثمد: الكحل. المتبلّد: جامد العقل وهو البليد. المتلدّد. الحائر فى أمره. صبّحت. سقيت صُبْحاً. سمّ الأسود. سمّ الأقصى الأسود وهى من أخبث الحيّات وسمّها لا ينجو منه اللديغ. المحض. الخالّص. الضرّائب. السجايا .الطباع. المحتد. الأصل.

سبحانه له الجلال والعلا والسؤدد، وهو القادر القهار وليس أمراً سهلاً أن يبحث الدارس لأبيات حسان عن المعانى التى حوتها الأبيات وخاصة الأبيات الثمانية الأولى، وذلك لأن الشاعر لم يشأ أن يصوغ فكراً بل كان يصور لوعة وأسى، وتفجعاً وحزناً يعتصر الفؤاد، ويدمى القلب، والتى لم تخف حدتها، ولم تهدأ ثورتها منذ أن ثوى رسول الله ﷺ على الرغم من مرور الأيام، وتوالى الحدثان.

الأبيات جاءت تصور لنا قلبا محزونا باكيا، ومسهدا شاكيا. فأودع حزنه الأبيات، وجسم لوعته وأساه فى النغمات، ويتمثل لك هذا فى حياته كلها. لذا نجده يسأل نفسه "على طريقة التجريد" وهو لون من ألوان البلاغة يكسب الكلام رونقاً وبهاءً، ويكسوه ثوباً قشيبا، ويزيده حسناً وجمالاً، وروعة وبهاءً، وفى مسألته هذه يجعلك تحس بأن الحسرة تملأ قلبه، ويفعم بها فؤاده وذلك فى قوله: "ما بال عينك لا تنام" ثم يجيب على السؤال بنفسه فيقول: "جزعاً على المهدى أصبح ثاويا" ثم ينادى الرسول عليه السلام متصوراً أنه حى وباقٍ فيقول: "يا خير من وطئ الحصى" وحق له ذلك فيقول الرسول ﷺ "حياتى خير لكم، ومماتى خير لكم، فإذا كنت حياً فإننى أنا بينكم، وإنْ مت تعرض علىّ أعمالكم، فإن وجدتها خيراً حمدت الله، وإن وجدتها غير ذلك استغفرت الله لكم" ثم يرجوه بعد ندائه له، فيقول له: "لا تبعد" ولكن النبى العظيم عليه السلام قد ثوى فى التراب وبعد عنه. ويتمنى حسان أن يقيه التراب ولو بوجهه "على طريقة الخبر" فيقول له: "وجهى يقيك الترب" ثم يفيق الشاعر ويعلم أن ذلك غير ممكن فيتمنى لو كان مات قبله، فيقول: "ليتنى غيّبت قبلك فى البقيع" ثم يفتديه بأبيه وأمه مرة ثانية، مع علمه أنه لا مجال لذلك العمل حيث حضر حسان وفاته - عليه الصلاة والسلام - وشاهدها بنفسه، ورآها بعينه، ثم يخبرنا الشاعر بأنه جامد الحسّ، متحير النفس، مشدوهاً حائراً فيقول: "فظللت بعد وفاته متبلّداً متلدداً" ويتمنى إن لم يكن وِلُدَ أصلاً " "يا ليتنى لم أولد" ولكنه ولد وأسلم ونصر رسول الله

بلسانه وشعره، وشهد وفاته، ثم يتعجب من حياته بعد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيقول متسائلاً: أأقيم بعدك بالمدينة بينهم؟!" ويرى الشاعر أنه لا سبيل إلى الخلاص من هذا الأسى، وذلك الحزن إلاّ بموته وتخلصه من الحياة نفسها ويومذاك يكون قد استراح من الأسى والحزن الذى أترع قلبه، وأفعم فؤاده. عندئذ يتَمنّى حسّان أن يُسقَى سمّ الأفعى الأسود والذى لا ينجو من لدغه أحد، فيحل به قضاء الله فتفيض روحه إلى بارئها، وهنا تسنح الفرصة ليلتقى برسول الله ﷺ صاحب الرسالة العظمى، والخلق السّوى، والطّبع الصّفى، والأصل الكريم ثم يناديه معظماً ومكبراً أمه فى حصانتها وعفتها، ومعظماً ولادته فى سعدها، ويمنها وبركتها، فيقول:

يــا بكــر آمــنة المــبارك بكــرها ... ولدتــه محــصنه بــسعد الأســعد

ثم يذكر أن مجيئه إلى الدنيا كان نوراً أضاء الكون كله، واهتدى به الحيارى، وكل من عرف الطريق إليه. فيقول:

نــور أضــاء علــى الــبرية كلــها ... مــن يهــد للــنور المبارك يهــتدى

ثم نراه فى آخر الأبيات ينادى ربه سبحانه ويرجوه مخبتاً ضارعاً أن يجمعه الله بحبيبه النبى العظيم فى جنة الفردوس وأن يكتبها له، فيقول:

فــى جــنة الفــردوس فاكتــبها لــنا ... يــا ذا الجــلال وذا العــلا والــسؤدد

هذه قصيدة الشاعر "حسان بن ثابت" – رضى الله عنه – ومعانيها مملوءة بألوان شتى من العاطفة المضطرمة المشبوبة فى نفسه والتحسر والجزع والتلهف، ثم القلق، والتضرع والرجاء، والتعجب من الحياة، وكراهية الإقامة فيها، وتمنى الموت، والتطلع للقاء المحبوب والرغبة فى الاجتماع مع النبى ﷺ فى جنة الفردوس. والمتمعن فى الأبيات أو الناظر فيها نظرة فاحصة متأنية يجد أن الأبيات جاءت مصاغة فى قوالب متنوعة، وجعل متباينة بين الاستفهام الذى يتلوه خبر، ونداء

يتلوه رجاء، وخبر يعقبه تلهف وحسرة ثم تجد التمنى والخبر مع النداء، ثم الخبر الذى يأتى بعده التمنى، ثم الاستفهام الذى يعقبه التمنى، ثم نداء وخبر، ونداء مع الرجاء. وهكذا لم يخلص بيت من أبيات القصيدة لنوع واحد من أنواع الأسلوب الخبرى أو الإنشائى، إلاّ إن كان هذا البيت قد جاء تكملة لمعنى، وذلك لم يقع ولم نره إلا فى الأبيات الأخيرة من القصيدة، وانعدام الاستقرار على نوع واحد من الأسلوب يكون انعكاساً لقلق النفس، واضطرام المشاعر، وتأججها فى صدر صاحبها، بيد أن الجمل فى الأبيات الأخيرة من القصيدة جاءت طويلة، وقلّ الرتم السريع فيها، وذلك لأن الشاعر حين بلغ هذه الأبيات كانت نفسه قد هدأت ورجاؤه انقطع، وتأكد، ووثق أنه لا أمل فى الاجتماع ورؤية الرسول – عليه الصلاة والسلام – إلاّ فى الدار الآخرة وقد تلونت الأبيات بصور من الخيال المصبوغ بالعاطفة الآسية الحزينة التى غّطت جلّ كلمات حسّان، فعينه لا تنام، فكأنما اكتحلت بكحل الأرمد، والشاعر لا يقصد مجرد الاكتحال، إنما يعنى لازمه، وهو رمد العين الموجع والذى يصحبه الكحل المحرق، مما أدى إلى تسهيده وحرمانه النوم أسىً وجزعاً. وجاءت بعض الصور ذات لون مشرق مثل "يا خير من وطئ الحصى" وقوله: "ولدته محصنة بسعد الأسعد" قوله: "نوراً أضاء على البرية كلها"، والأول والثانى كناية والثالث تشبيه مرشح، وجاءت تلك الصور فى حيز الإحساس بفقدانها إذ كانت من صفات الرسول عليه السلام الذى انتقل إلى الرفيق الأعلى، فكانت فى إشراقها مع الإحساس بفقدها عاملاً من العوامل البليغة الأسى الزائد فى الترويع، وعلى هذا قد بدا أن الأبيات غطتها مشاعر حسان بن ثابت تلك المشاعر الحزينة القلقة ونفسيته المضطربة، ولاغرو لدينا فإن الفقيد العظيم محمد صلى الله عليه وسلم صفاته وسماته، وخلاله، وخصاله، وخلقه، وعظمته، أكبر من الأبيات، وأجل من كل وصف، وقد كان حسان فى مستوى عالٍ رفيع، حيث اكتفى من خلاله وصفاته عليه السلام بالمزايا الكلية الجامعة من أمثال قوله: "يا خير من

وطئ الحصى" محصنة بسعد السعود "نوراً أضاء على البرية كلها"، ثم يعود مصوراً آلام نفسه دون التصريح بشئ من هذه الآلام، وإنما ترك لقارئ الأبيات استخراج ما فى مكنونها، وما تحمله بين ثناياها وطيباتها.

لذا كانت هذه الأبيات كما يقول النقاد وعلماء الأدب من خير وأحسن وأفضل ما قاله الشعراء فى "فن الرثاء" لأن الشعر ترجمة لما فى الفؤاد، وتصوير للأحاسيس، ولا يقلل من شأن الأبيات وقيمتها الفنية حديث الشاعر عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بأنه"بكر آمنة المبارك بكرها" فليس من مزاياه عليه السلام أنه بكر آمنة لأن آمنة لم تلد سِوَاهُ عليه السلام حتى يوصف وليدها العظيم بأنه "بكر" ليتميز عن بقية إخوته، وذلك على ما فى التركيب ذاته من كلمات تتكرر حروفها فتشعرك بالثقل فى نطقها(١).

قال أبو أحمد بن جحش فى الهجرة:

لَمَّا رأتْنِى أمَّ أحْمَدَ غَادِياً ... بذمة من أخشَى بذنب وأرْهَبُ(٢)
تقولُ: فإما كنت لابدّ فَاعِلاً ... فيمّمِ البُلْدانَ وَلْتَنْأَ يثرب
فقلتُ لها: بل يثربُ اليوم وجهُنا ... وما يَشَأِ الرّحمنُ فالعبدُ يركبُ
إلى اللَهِ وَجْهِى والرسولُ ومن يقمْ ... إلى اللهِ يوماً وجْهَهُ لا يُخَيَّبُ
فَكَمْ قد تركنَا من حَمِيمٍ مِنُا صِحِ ... وناصحةٍ تَبْكِى بدَمْعِ وتَنْدَبُ
ترى أنّ وتراً تأينا عن بلادِنا ... ونحن نرى أنْ الّرغائِبَ تُطْلَبُ
دعوتُ بَنِى غُنْمِ لِحَقْنِ دمائِهِمْ ... ولَلحِقّ لَمّا لاَحَ للنّاسَ مُلْحِبُ
أجابُوا بحمد اللهِ لَمَا دَعَاهَمُ ... إلى الحقِّ دَاعِ النجاةُ فَأَوْعَبُوا

(١) رؤى جديدة فى نصوص قديمة للأستاذ المرحوم عبد السلام عبد الحفيظ، مطبعة الفجر الجديد صـ ١٠٨ـ ١٤٠١ هـ١٩٨١م بتصرف.

(٢) رؤى جديدة فى نصوص قديمة أ. د/ عبد السلام عبد الحفيظ، عميد كلية اللغة العربية الأسبق - يرحمه الله - صـ ٩٠، ٩١ مطبعة الفجر الجديد بالقاهرة سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١م.

وكنّا وأصْحاباً لنا فارقُوا الهدُىَ ... أعانُوا علينَا بالسّلاح وأَجْلَبوا
كَفَوْجَيْن: أمّا منهم فموفّقٌ ... على الحقّ مهدِىٌّ، وفوجٌ مُعَذَّبُ
طَفَوْا وتمنّوا كذبة وأزلّهم ... عن الحق إبليسُ فَخَابُوا وخَيَّبُوا
ورُعْنَا إلى قول النّبى محمد ... فطابَ ولا فالحق منا وطيبُوا
نَمَتْ بأرحامٍ إليهم قريبةٍ ... ولا قرب بالأرحام إذ لا تقربُ
فأى ابْنُ أخت بعدناَ بأمتكم ... وأى صِهْر بعد صهرى ترقب
ستعلَم يوماً أينا – إذا تزايلوا ... وزيل أمر الناس – للحق أصوبُ

الدراسة والتحليل:

"أم أحمد" زوجة الشاعر: غادياً: عائداً إلى بيته، الذمة: العهد، يمم: قصد واتجه. النأى: البعد. وجهنا: اتجاهنا. الحميم: الصديق والصاحب يقول تعالى: "فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم" تندب: تبكى – الخلائق والصفات، الوتر: جاء هنا بمعنى الظلم وانتقاص الحق – والرغائب: جمع رغيبة وهى العطية. بنو غنم: أهل الشاعر وعشيرته. الملحب: واللاحب: الطريق المستقيم الواضح – أوعبوا: خرجوا كلهم لم يبق منهم أحد – أجلبوا – اجتمعوا وتألبوا.

المعنى الإجمالى:

يتحدث الشاعر فى الأبيات سالفة الذكر عن هجرته – رضى الله عنه – من مكة إلى المدينة، ذاكراً موقفه منها، وإصراره عليها مبيناً ما يتغياه من الهجرة، وموقف الشاعر من الذين عذبوه فى مكة ونكَّلوا به وبإخوانه المسلمين، فيبدأ الشاعر بحوار يدور بينه وبين زوجه يصور فيه تصميمه على الهجرة إلى المدينة المنورة، صلى الله وسلم على ساكنها. وتراه زوجه مصراً على رأيه معاهداً ربه الذى يتخوف أن يلقاه آثماً، أو أن يحبس معه بعهد، ولكنّ زوجته تحاوره وتعانده واقفة فى وجه هجرته إلى المدينة طالبة منه أن يتجه بها إلى بلد آخر من البلدان خلاف المدينة فيجيبها المهاجر

المسلم (أبو أحمد) فى حزم وعزم إن يثرب هى وجهتنا وإرادة الله توجهنا إليها ولابد من الهجرة. فما يشاؤه الله عز وجل لابد للعبد من تنفيذه، وأن هجرته إلى يثرب توجيه من الله سبحانه وبهجرته إليها يكون قد ولىّ وجهه إلى الله ورسوله والله لا يخيّب من قصده ولجأ إليه، ثم يذكر الشاعر أنه قد ترك بهجرته فى مكة كثيراً من الخلان والأحباب المتعاونين على النصيحة، وكذلك الصديقات المخلصات اللائى يبكين بدمعهنّ فراقهم، ويفتقدن فى غيابهم مزاياهم وخلقهم فيندبنها آسفات عليها ويرى هؤلاء وأولئك أن ترك بلادنا ظلم لنا ونحن نرى الخير كل الخير فى هجرتنا، ثم يقص الشاعر علينا أنه قد دعا أهله للهجرة حقنا لدمائهم، واستجابة لدعوة الحق وتصديقاً لرسوله عليه السلام وجميعاً بحمد الله استجابوا لدعوته وهى دعوة إلى الحق والنجاة وخرج الجميع مهاجرين فى سبيل الله لم يتخلف منهم أحد. وأن المسلمين كانوا ورفقاء عيشهم من المشركين الذين لم يهتدوا بهدى رسول الله – عليه الصلاة والسلام – وأعانوا على المسلمين، وتألّبوا عليهم، وكادوا لهم، وشهروا فى وجههم ووجه الدعوة كل سلاح، وقعدوا لها كل مرصد، فهؤلاء كانوا فريقين، فريق هداه الله إلى الحق فربح، والآخر ضلّ الطريق فعذب وباء بالخسران المبين، وأزلفهم إبليس عن الحق إلى الباطل فضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا والآخرة. أما الفريق الرابح وهم المهاجرون المسلمون فقد استجابوا لله ولرسوله، فطهرت قلوبهم، وطابت نفوسهم، وصفت أرواحهم لأنهم آمنوا بالله وصدقوا برسوله. ثم يذكر الشاعر أن المسلمين تربطهم بالمشركين وشائج وأمشاج، من صلات رحم وقرابة، بيد أنه لا وزن لهذه الأرحام وتلك القرابة بعد أن قطّع أواصرها المشركون بأعمالهم العدوانية على المسلمين، وسيعلم المشركون بعد فراق المسلمين لهم بهجرتهم إلى المدينة أى الفريقين أكثر إصابة للحق، وأيهما أهدى سبيلا.

والمتمعن فى أبيات الشاعر يرى الأحاسيس متضاربة من الألم والأمل فى نفوس مؤمنة يكتنفها الإيمان، ويوجهها التوحيد ويضع لها الضوابط حتى لا يقودها الانفعال إلى فحش القول وسفاسف الأمور، وكانت الروح الإيمانية هى المسيطرة

على نفسيّة الشاعر وكلماته أيضا. وقد بدا إصراره على الهجرة فى مواجهة زوجته ورده الحاسم عليها وهو "بل يثرب اليوم وجهتنا"، وكانت بغية الشاعر حمل زوجته على الهجرة معه مبيناً لها الأسباب الداعية إلى ذلك، وهى أن الهجرة إرادة الله سبحانه، وعلى المؤمن أن ينفذها فيقول "ما يشاء الله فالعبد يركب" كما وضح لها الغاية من الهجرة، وأنها توجه إلى الله ورسوله وذلك فيه الفلاح الذى لا ريب فيه فيقول "فمن يقم إلى الله يوماً وجهه لا يخيب" والهجرة لديه إجابة لداعٍ ربانى، وليست وسيلة للنجاة والهرب، وأنه فى سبيلها ضَحَّى بترك أصدقائه المخلصين، وجارات حانيات عليه، كما أنه ترك مسقط رأسه، ومدرج صباه فإن له رأياً يخصه مخالفاً آراء أصحابه الذين يرون أن ترك الوطن ظلم يحيق بهم، بيد أنه يطلب ما هو أغلى وأثمن من الوطن والأصدقاء والجارات، وهو الثواب العظيم من الله عز وجل. ويريك الشاعر أنه هاجر مع أهله جميعاً، حيث إنهم استجابوا لدعوته، ولكنه يذكر أن دعوته لهم تضمنت إغراءً دنيوياً بجانب الإغراء الدينى، فالهجرة لديهم "حقناً لدمائهم" و"للحق الذى بدا طريقه واضحاً". وفى الحديث عن أسباب الهجرة نرى الشاعر يوازن بين المسلمين والمشركين فى اتزان فكانوا معاً أصحاباً، بيد أن المشركين فارقوا الهدى وأعانوا على المسلمين، لأن المسلمين هدوا إلى الحق واتبعوا قول النبى محمد ﷺ فطابت نفوسهم، وطهرت قلوبهم، وأما المشركون، فقد اتبعوا إبليس الذى أزلفهم عن الحق فخسروا الدنيا والآخرة، وبذلك تفرق الجمعان فراقاً لا لقاء بعده، فلا يمكن أن يلتقى الكفر بالإيمان، حتى وإن كانت الأرحام تصل بينهم.

وتعد هذه القصيدة وثيقة من الوثائق التاريخية والنفسية أيضاً ودراسة القصيدة نستشف من خلالها أحوال المسلمين التاركين لبلدهم "مكة" مضحّين بأموالهم، وعلاقتهم الشخصية محددين العلاقة بمن وقف فى وجه دعوتهم وبمن نكلوا بهم وعذبوهم. كما يبدو لنا من خلال الدراسة للقصيدة اختلاف أحوال المهاجرين. فمنهم من كانت هجرته خالصة لوجه الله سبحانه دون نظر إلى غرض دنيوى، ومنهم من كانت هجرته بغية حقن دمه مع الاستجابة إلى داعى الحق مثل "آل

غنم" ومنهم من تباطأ فى الهجرة. "أم أحمد" التى استجابت لإصرار زوجها، ولذلك قالت له "أما كنت لابد فاعلاً فيمم البلدان ولتنأ يثرب"، وكان هدفها من ذلك خشيتها أن تمتد يد القرشيين إليهم بالتعذيب والتنكيل فى المدينة أيضاً وبذلك تكون غربة وعذابا، أما هجرتها إلى بلد غير المدينة، ففيه عذاب الغربة فقط، وتجنب أذى المشركين، يضاف إلى ذلك أن بعض القرشيين كان منهم الحميم الرفيعة، فلذلك ندبت روح الشاعر فرقتهم وأن من المسلمين غير عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أعلنوا عن اعتزامهم الهجرة وعرفهم الناس قبلها مثل "أبو أحمد"، وأهله وأن المسلمين حين هاجروا صادفوا ألواناً من القسوة والعنت من المشركين لغير جرم اقترفوه، أو ذنب ارتكبوه. وأنه لم ينج من العذاب أحد ولذلك هاجروا غير آسفين على ترك أصهارهم وأرحامهم. والقصيدة جاءت غنية بالمعانى الإسلامية، لأنها من وحى حدث إسلامى عظيم، ومن فيض نفس مؤمنة وثيقة الإيمان بالله ورسوله حيث الحفاظ على عهد الله، وتنفيذ إرادته وإجابة لداعى الحق والرجوع إلى قول الرسول ـ ﷺ ـ وطيب ولاة الحق وإقامة الوجه لله ورسوله والرغائب التى عند الله عز وجل، كل هذه المعانى معانٍ إسلامية، استوحاها الشاعر من القرآن الكريم، والتعاليم النبوية وكذلك المعانى الأخرى التى تبدو وصفاً للمشركين من إعانتهم على المسلمين بالسلاح، وتركهم الحق والخير والهدى وطغيانهم واتباعهم إبليس، كل ذلك من وحى الصراع مع الشرك وأهله ـ وفى هذا دليل حاسم على أن الشعر الإسلامى تأثر كثيراً بتعاليم الإسلام السامقة، وروحه العالية، وخاصة لدى الشعراء الذى غذوا بتعاليم الإسلام وعايشوا أحداثه.

رثاء الرسول ﷺ لحسان بن ثابت

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... مُنير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمحى الآيات من دارِ حرمة ... بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وواضح آثارِ وباقى معالم ... وربع له فيه مُصلّى ومسجد
بها حُجَرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويَوقَد
معالم لم تُطمَس على العهد آيُها ... أتاها البلى فالآى منها تجدد
عَرِفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبراً بها واراه فى الترب مُلحِدُ
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت ... عُيونُ ومثلاها من الجن تُسعَد
يُذكّرن آلاء الرسول وما أرى ... لها مُحصياً نفسى فنفسى تَبَلَّدُ
مُفَجَّعة قد شفّها فقد أحَمدِ ... فظَلّت لآلاء الرسول تُعّدِدُ
وما بلغت من كل أمرِ عشيرة ... ولكن لِنفسى بعدُ ما قد توجَّدُ
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها ... على طللِ القبر الذى فيه أحمد
فبُوركت يا قبر الرسول وبُورِكَت ... ثوى فيها الرَّشيد المسدَّد
تهيل عليه التُرب أيدٍ وأعُين ... عليه وقد غادت بذلك أسعد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكى السماوات يومه ... ومن قد بكته الرضي فالناس

---

(١) الديوان: صـ

وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد

تقطع فيهم منزل الوحى عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد

يدل على الرحمن من يقتدى به ... وينقذ من هول الخزايا ويرشد

إمام لهم يهديهم الحق جاهدا ... معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلاّت يقبل عذرهم ... وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

وإن تاب أمر لم يقوموا بحمده ... فمن عنده تيسير ما يتشدد

عزيز عليهم لا يثنى جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

فبيناهم فى نعمة الله بينهم ... دليل به نهج الطريقة يقصد

فبيناهم فى ذلك النور قد غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد

فأصبح محموداً إلى الله راجعاً ... يبكيه جفن المرسلات ويحمد

وأمست بقاع الحوم وحشا بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحى تعهد

قفاراً سوى معمورة اللحد ضاقها ... فقيد يبكيه بلاط وغرقد

ومسجده فالموحشات لفقده ... خلاء له فيها مقام ومقعد

وبالجمرة الكبرى له ثم أو حشت ... ديار وعرصات وربع ومولد

فبكى رسول الله يا عين عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد

ومالك لا تبكين ذا النعمة التى ... على الناس منها سابغ يتغمد

فجودى عليه بالدموع وأعولى ... لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد

أعف وأ وفى ذمة بعد ذمة ... فأقرب منه نائلاً لا ينكد

وأبذل منه للطّريف وتالد ... إذا ضن معطاء بما كان يتلد

وأكرم حيا فى البيوت إذا انتمى ... وأكرم جداً أبطحياً يسود

وأمـنع ذروات وأثـبت فـى العـلا | دعــائم غــر شــاهقات تُــشيدً
وأثـبت فـرعاً فـى الفـروع ومنبـتا | وعـودًا غـداة المزن والعـود أغـيد
تــناهت وحــياة المــسلمين بكفــه | فـلا العلـم محبوس ولا الرأى يفند
أقــول ولا يلقــى لقــولى عائــب | مـن الـناس إلا عـازب الـنقل مـبعد
مـع المصطفى أرجـو بـذاك جـواره | وفـى نيل ذاك الـيوم أسعى وأجهـد

قال عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ فى "وقعة مؤتة"(١) لمّا تولى قيادة الجيش بعد استشهاد القائدين قبله:

يــا نفــس إلاّ تقتلــى تموتــى | هــذا حمـام(٢) المـوت قـد صـليت
ومــا تمنــيت فقــد أعطــيت | أن تفعلــى فعلــهما هــديت
أو تبتلــى فطالمــا عوفــيت | وإن تأخــرت فقــد شــقيت
أقــسمت يــا نفــس لتنــزلنه | طائعــة أو فلتكــرهنه
إذا أجلـب الـناس وشـدوا الـرنة | مــالى أراك تكــرهين الجــنة
وطالمــا كــنت مطمئــنة | هــل أنــت إلاّ نطفــة مــن شــنة

---

(١) فى جمادى الأولى سنة ثمان كانت غزوة مؤتة واستعمل النبى عليه السلام على الجيش: زيد بن حارثة: وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس وكان عدد المقاتلين فى وقعة [مؤتة] ثلاثة آلاف مقاتل.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣٧٣، والروض الأنف للسّهيلى ج٤ ص٧٢، ٧٣ تقديم طه عبد الرءوف سعد مطبوعات عباس عبد السلام شقرون.

١ - الحِمام: بكسر الحاء: قضاء الموت وقدره. صليت قاسيت حرارته.

٢ - فعلهما: يعنى فعل القائد بن قبله: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب.

لتنزلنه: الضمير للموت، وكذلك فى لتكرهنه الضمير للموت وليست الهاء لسكت.

أجلب الناس: تجمعوا. شدوا. الرنة: علت صيحاتهم القوية.

المنطقة: قطرة الماء. الشنّة: القربة المهتكة الصغيرة.

الدراسة والتحليل:

خرج الجيش الإسلامى قاصداً "مؤتة" فى جمادى الأولى سنة ثمانٍ للهجرة، واستعمل عليهم "زيد بن حارثة"، وقال: إن أصيب "زيد" فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب "جعفر" "فعبد الله بن رواحه" على الناس، فتجهز الناس ثم تهيأوا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ـ ﷺ ـ وسلموا عليهم. فلما ودع عبد الله بن رواحة مَنْ ودّع من أمراء رسول الله ـ ﷺ ـ بكى. فقالوا ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [1] فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله بن رواحة:

لكنّنى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حرّان مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم تهيأ القوم للخروج، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ـ ﷺ ـ فودعه، ثم قال:

فثبت الله ما أتاك من حسنٍ ... تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا [2]

إنى تفرست فيك الخير نافلة ... الله يعلم أنى ثابت البصر

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

---

(١) سورة مريم، آية رقم (٧١).

(٢) الروض الأنف للسّهيلى ج٤ ص٧١ تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد.

١- ضربة ذات فرغ: واسمة يسيل دمها.

٢- الحران: العطشان، والمراد هنا: العطشان إلى الدم أى معطشة للقتال والانتقام من أعداء الله، مجهزة: قاتلة، تنفذ: تصل إلى الشئ وتخالطه.

٣- الجدث: القبر. قال تعالى "ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون".

يقول ابن هشام: وأنشدنى بعض أهل العلم بالشعر هذه الأبيات:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر[1]

فثبَّت الله ما آتاك من حسنٍ ... فى المرسلين ونصراً كالذى نصروا

إنى تفرست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفت فيك الذى نظروا

يعنى المشركين وهذه الأبيات فى قصيدة له يقول ابن اسحاق: ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا ودَّعهم وانصرف، قال عبد الله بن رواحه:

خلف السلام على امرئ ودَّعته ... فى النخل خير مشيع وخليل[2]

ثم مضوا حتى نزلوا "معان" من أرض الشام، فبلغ الناس أن "هرقل" نزل "مآب"، من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من "لخم، وجذام، والقين، وبهراء "وبلى" مائة ألف منهم، عليهم رجل من "بلى" ثم أحد! راشة يقال له "مالك بن زافلة" فلما بلغ المسلمين أقاموا على "معان" ليلتين يفكرون فى أمرهم، وقالوا: تكتب إلى رسول الله ﷺ، فخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وقالوا: تكتب إلى رسول الله ﷺ، فخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضى له. قال: فشجع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إن التى تكرهون، للتى خرجتم تطلبون "الشهادة" وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به[3]، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إمّا ظهور[4]، وإمّا شهادة. قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس، فقال عبد الله بن رواحة:

---

(١) ذاته ص ٧١.

(٢) ذاته ص ٧١.

(٣) ذاته .

(٤) ذاته.

جلبنا الخيل من أجإ وفرع ... تفر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سبتاً ... أذل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معانٍ ... فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسمومات ... تنفس فى مناخرها السموم
فلا وأبى مآب لنأتينها ... وإن كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنتها فجاءت ... عوابس والغبار لها يريم
بذى لجب كأن البيض فيه ... إذا برزت قوانسها النجوم
فراضية المعيشة طلقتها ... أسنتها فتنكح أو تئيم[1]

وفى أثناء سيرة أخذ ابن رواحة يردد من الأشعار ما يؤكد استشرافه وتطلعه للشهادة، حتى لُكَع ربيبه "زيد بن الأرقم" فخفقه ابن رواحة بالدرّة، وقال له: ما عليك يا كلع أن يرزقنى الله شهادة، وترجع بين شعبتى الرحل! حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع "هرقل" من الروم والعرب، بقرية من قرى "البلقاء" يقال لها.. "مشارف"، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها "مؤتة" فالتقى الناس عندها فتعبأ لها المسلمون! فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بنى عذرة يقال له "قطبة بن قتادة"، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له "عباية بن مالك"، ويقول ابن هشام" "عبادة بن مالك". والتقى الجمعان، وحمى الوطيس، وسكتت الألسنة، ونطقت الأسنة، وقامت الأسياف لتخطب فوق أعناق الرجال ويقدم المسلمون للقاء عدوهم فى بسالة وشجاعة نادرة ويقود المعركة "زيد بن حارثة" يحمل راية رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيستشهد بعد بطولات خارقة، ويتسلم الراية "جعفر" فيلقى الله شهيداً، بعد أن هاج فى صفوف المشركين كما يهيج الجمل الأورق ثم يتسلم الراية عبد الله بن رواحة وتتردد نفسه الإقدام

(١) الظّهور ـ النصر ـ الحسينية. إما الشهادة أو النصر.

خشية الموت فيقول مخاطباً نفسه ومشجعاً غيره فى الأرجوزتين سالفتى الذكر وفى الأولى يشرع ابن رواحة فى تثبيت نفسه وتذكيرها بمصيرها المحتوم، وأن الأمل لدى الله عز وجل، ويذكرها بفعل القائدين قبله "زيد" و"جعفر"، فإن هى نَجَتْ من القتل فى المعركة، فإن الموت ينتظرها، ويذكرها بأنها كثيراً ما تمنت الشهادة فى سبيل الله وها هى ذا فلم تكرهين اللّقاء، وقد تمنيت ذلك من قبل وقد سبقك فى الميدان قائدان عظيمان أبليا بلاء حسناً حتى استشهدا، فإن فعلت مثل ما فعلوا، فقد هديت وإن تأخرت عن صاحبيك فقد شقيت. وفى الأرجوزة الثانية يحس ابن رواحة أن نفسه لا تزال مترددة قلقة، فإذا به يقسم عليها أنه لابد لها من النزول إلى ميدان الموت مكرهة، أو طائعة حيث إن الناس قد تجمعوا، وعلت أصوات التضحية والفداء. ثم يستنكر منها كراهيتها للموت، علماً بأنه السبيل إلى الجنة، وكثيراً ما اطمأنت إليه وإلى الجنة التى ستفوز بها من ورائه، ثم يهون عليها الموت مصوراً نفسه ذلك التصوير الرائق الجميل، وهو أنها ليست أكثر من قطرة ماء فى دلو صغير متهتك قديم، لا يضيرها أن تسقط منه.

وفى هاتين الأرجوزتين لون من الحوار الذاتى بين الشاعر ونفسه، يستحثها فيه على الإقدام على عملٍ هو من أقسى الأعمال إلى النفس البشرية، وهو الإقبال على الموت فى ميدانٍ يتفوق العدو فيه عدداً وعتادا، بيد أن الشاعر خرج من بيته حريصاً على نيل الشهادة فحسب، فلمّا اهتزت نفسه ووسوست إليه مزيِّنة لها الحياة؛ أنكر عليها ذلك فأخذ يخاطبها وكأنها نفس غريبة عنه أو هى نفس غير التى عرفها، فجردها عنه، ولم يضفها إلى ياء المتكلم، ويقول "نفسي"، ثم يأخذ الشاعر فى مخاطبتها وتذكيرها بأن الموت آتٍ لا محالة، فيقول لها: "إلاّ تقتلى تموتي" مع استخدام أسلوب الشرط المنفى بلا، فإن كانت تخشى القتل، فإن الموت يترصدها، وإن طالت أو قصرت، فإنه ينتظرها، ثم يبصرها بالطريق؛ فيقول لها "هذا حمام الموت قد صليت" وهنا ينسى القتل، ويبرز الموت وحده، ليعرفها أنه لا فرق بين القتل

والموت. كما أن الشاعر يذكرها بما تمنته بقوله "وما تمنيت فقد أعطيت" ومما لا ريب فيها أنها كانت متمنية الشهادة فى سبيل الله فهو يذكرها بذلك لتهدأ، وتقبل عليها فى اطمئنان وما عليها إلاّ أن تفعل فعل صاحبيها "زيد وجعفر" "إن تفعلى فعلهما هديت" يعنى هديتى إلى الشهادة المرجوة والمنتظرة، حيث إنها السبيل للفوز بالرضوان والتنعم بفراديس الجنان. ثم يخاطب نفسه قائلاً لها، مفترضاً أنها إن نجت من الموت ستصاب إصابة تقعدها عن النشاط والعمل، فلا تجزعى فكثيراً ما عشت فى عافية، فلا ضير إذا بليت، ويحذرها من التأخر من فعل الصاحبين قبلها، لأن ذلك فيه شقاؤها دنيا وأخرى، ثم نرى الشاعر يحاول بكل وسيلة أن يرد نفسه إلى الموت عن طريق الحوار الهادئ فى تعقل وأناة، فلما وجد النفس لا تزال متوجسة وسبيل المنطق غير مقنع لها أخذ فى إكراه نفسه على النزول إلى ميدان الشهادة مقسماً عليها ومؤكداً، وآمراً لها أنه لابد من النزول إلى ساحة الموت راضية مرضية، وإلا ستكره على الإقدام والنزول إلى ميدان النزال، حيث لا مجال للتردد، فيقول: "إذا أجلب الناس وشدوا الرنّة" ثم يعاتب ابن رواحة نفسه، فيخاطبها قائلاً "مالى أراكى تكرهين الجنة" وهو سؤال تعجبى إنكارى فيه غرابة التردد على نفسه "طالما قد كنت مطمئنة"، ثم يهون عليها الموت بقوله "إنك لست أكثر من نقطة ماء فى قطعة جلد متهرئة وممزقة وليس صعباً أن تنزل قطرة الماء من قربة ممزقة. ولتفاوت الانفعال النفسّى لدى الشّاعر فى الأرجوزتين، ظهر أيضا التعاون فيهما، هدوء وترابط فكري فنرى الفكر فى الأولى هادئاً ومنطقياً ومتسلسلاً ومترابطاً، كما ظهر التفريع والافتراض فى الأفكار وبدت رؤية الشاعر واضحة ومحددة فى الغايات، كما بدا الهدوء فى الألفاظ والتراكيب والنغم والقافية، وجاءت العبارات خلواً من المجاز، عدا قوله: "هذا حمام الموت قد صليت"، التى لم تهدف إلى أكثر من تصوير الإحساس بلذع الموت فى حركة الميدان، وفيما عدا ذلك كانت لغة الحقيقة هى المسيطرة على الأرجوزة أما فى الأرجوزة الثانية، فقد كان انفعال الشاعر أشد

وثورته أوضح، ولذا بدا الفكر متسماً بالعنف والثورة على النفس والتأنيب لها، كما نرى أن صخب العبارة بدا على الأرجوزة. وخاصة فى قافيتها المنتهية بالهاء الساكنة المسبوقة بالنون المشددة "مالى أراك تكرهين الجنة" و"هل أنت إلا نطفة فى شنة" وطائعة أو فلتكرهنه، كما لجأ الشاعر صاحب النفس الثائرة إلى الصورة المادية للتعبير بها عن المعانى النفسية، وذلك فى قوله "شدّو الرثّة" للدلالة على قوة الحماس، الذى بدا فى أصوات المقاتلين، وقوله "هل أنت إلا نطفة فى شنة" للدلالة بها على أنها هيّنة لديه، وأمر طبعى أن نقول: إن الشاعر قد صدر فى أرجوزتيه من نبع إسلامى عميق وثابت، يؤمن بقضاء الله وقدره متأسيا بالصحابة الأجلاء من قبله. لذا يجد الموت هداية وخيرا، ونجاحا وفلاحا فى الدنيا والآخرة، وفى البقاء شقاء وعارا، وذلاً وشنارا، وفى تردد نفسه كراهية للجنة. ولا غرو فى أن يجيئ هذا الكلام، وتصدر تلك المعانى الخالدة من رجل كابن رواحة، الذى عبّر بشعور دينى عميق وهو فى ميدان الشهادة والبذل والجود بالنفس فى سبيل العقيدة.

وهكذا كان ابن رواحة والصّحابة المضمّون فى سيل الإسلام بذلاً، وسخاء بالنفس، والمال، مما يدل على أن لسان حالهم جميعا، قول الشاعر المسلم.

ولستُ أُبالى حين أُقْتَلُ مسلماً على أى جنبٍ كان فى الله مصرعى

شهدت بإذن الله

شَـــهِدْتُ بـــإذنِ اللهِ، أنّ مُحَمَــدا	رَسـوُل الـذى فَوْقَ السموات مِنَ علُ
وَأنّ أَبـــا يَحْيَـــى ويحيـــى كلـــيْهما	لَـــهُ عَمَـــلٌ فـــى ديـــنهِ مُتَقَـــبَّلُ
وأنَّ التـــى بالجِـــزعِ مِـــنَ بطـــن نخْلَـــةٍ	ومَـــنْ دَانَهـــا فـــلٌّ مِـــنَ الخَـــيرِ مَعـــزِلُ
وَأنّ الـذى عَـادى اليهودُ ابـنَ مَـرْيَمٍ	رَسولُ أتى من عندِ ذى العَرْش مُرْسَلُ
وَأنّ أخَـــا الأحْقَـــافِ إذ يعذُلـــونَهُ	يَقُـــومُ بـــدينِ اللهِ فـــيهِمْ، فـــيَعْدِلُ[1]

(١) الديوان ص ١٨٦.

الجذع من الوادي: حيث تجزعه يعنى تقطعه. نخلة. موضع بالحجاز بين مكة والطَّائف. دانها. يعنى دان بها وعبدها، وأراد بها العزّى وهو صنم كان لقريش وبنى كنانة. فل من الخَير. خالٍ من الخير. عادى اليهود: أى عاداه اليهود. أخو الأحقاف. هو البنبى هو عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. وبعد إنشادها قال النبى ﷺ: أنا أشهد معك.

"حصان رزان"(١)

حَصَانٌ رُزَانٌ ما تُزَنُّ بريبَة وتُصْبِحُ غَرْثَى من لحومِ الغَوافل
حَلِيلَةُ خيرِ الناس ديناً ومنصباً نَبِى الهُدى والمكُرماتِ الفَواصلِ
عَقيلَةُ حَى من لُؤى بْنِ غالبٍ كِرَامِ المسَاعى مجْدُهاَ غيرُ زائِلِ
مُهَذَّبَةُ قد طَيَّبَ اللهُ خيمَها وطَهّرَهَا من كلّ سُوءٍ وباطِلِ
فإن كنتُ قد قلتُ الذى قد زَعَمْتُمُ فَلا رَفَعَتْ سَوْطى إلىّ أنامِلى
وإنّ الذى قدْ قِيلَ ليْسَ بلائطٍ بها الدَهر بل قوْلُ امرئٍ بى ما حِل
فكَيْفَ وَوُدّى ماَ حَيِيتُ ونُصرتى لآلِ نَبى الله زَينِ المحَافِلِ
لَهُ رَتَبُ عالٍ عَلى النّاسِ كلِّهِمْ تَقَاصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ المتَطَاوِلِ
رأيتك ولْيَغْفِرْ لَكِ اللهُ حُرّةً مِنَ المحصنَاتِ غيرَ ذاتِ غوائِلِ

---

(١) الديوان ص ١٨٨.

الحصان: العفيفة. الرّزان: ذات الثبات والوقار والعفاف. تزنّ: تُتّهم غرثي. جائعة وخالية. الغوافل: جمع غافلة. يعنى لا تخوض فى أعراض الناس. العقيلة: السّيدة الكريمة. الخيم: الأصل. لائط: لازق. الماحل. مأخوذ من محل به إلى الأمير. سعى به وكاده، وافترى عليه وتقوّل شيئا لم يقله. الرّتب. ما أشرف من الأرض، استعارة للمجد والشّرف. سورة: وثبة.

ورث الضلالة عن أبيه

لقــد وَرثَ الــضّلالةَ عــن أبــيه ... أُبَــى، يوْمَ فَاقَــهُ الرّســولُ[1]
أجِــئْتَ مُحمّــداً عَظمــاً رَمــيماً ... لــتُكذِبَهُ وَأنــتَ بــهِ جَهــولُ
وقــد نالــتْ بــنو الــنَّجّارِ مــنكُمْ ... أُمــيّةَ، إذْ يُغَــوِّثُ يَــا عَقَــيلُ
وَتَــبَّ ابْــنا رَبِــيعةَ إذْ أطاعَــا ... أبــا جَهْــلٍ لأمّهمــا الهــبُولُ

(١) الديوان ص٢٠٠. دار صادر بيروت لبنان ـ بدون تاريخ
يغوث: يطلب الغوث، العون والنصرة
تب: هلك. الهبول: الثكل.

الأمر بالمعروف

أوصَــى أبُــونا مالِــكُ بوصَــايَةٍ عَمــراً وعَــوفاً إذ تَجَهّــزَ غاديَــا[1]
بــأنِ اجعَلـوا أمـوالَكمْ وسـيوفكُمْ لأعراضِــكُمْ مــا سَــلّمَ اللهُ واقــيَا
فقُلـنا لــهُ إذ قــالَ مــا قــال مَـرْحَباً أمَـرْتَ بَمعـروفٍ وأوصـيت كافِـياً

(١) ذاته ص ٢٦١.
تجهز غادياً: أى حضره الموت.

اعتذار واستعطاف

من كعب لرسول الله (عليه الصلاة والسلام)

أنبئت أن رسولَ الله أَوْعَدِنى ... والعَفوُ عند رسُول الله مأمولُ

مهلاً هَدَاكَ الذى أعطاك نافلَة الـ ... قرآن فيها مواعيظُ وتفصيلُ

لا تأخُذَنّى بأقْوالِ الوُشاة، ولم ... أُذنب، وإن كثرتْ فىّ الأَقاويلُ

لقد أقومُ مقاماً لو يقومُ به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرّسول - بإذن الله - تَنْويلُ

حتى وضعتُ يمينى لا أُنَازِعُهُ ... فى كفّ ذِى نِقَمَاتٍ قِيلُهُ القِيلُ

لذاك أهيبُ عندى إذ أكلّمُهُ ... وقيلَ: إنّكَ مسبور ومسئولُ

من خادرٍ من ليوث الأسْد مِسْكَنُهُ ... من بطن عثر غِيلُ دُونَهُ غيلُ

يغدُو فَيلحِمُ ضِرْغامَينَ عيشهمَا ... لَحْمُ مِن القومِ مَعْفُورُ خَرَاذيلُ

إذا يُسَاوِرُ قِرْنًا لاَ يَحِلُّ لَهُ ... أَنْ يترك القِرْنَ إلاّ وهو مَجّدُولُ

منه تَظَلَ حمير الوحش ضامرةً ... ولا تُمْشِى بِوَاديه الأَرَاجِيلُ

ولا يزالُ بواديه أخُو ثقَةٍ ... مُطَرّح البز والدِّرسان مأكولُ

إن الرسولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ به ... مُهَنّدُ من سيوفِ الله مَسْلُولُ

فى عصبة من قريش قال قائِلُهُم ... ببطْنِ مكّةَ لما أسلمُوا - زُولُوا

زالُوا فما زالَ أَنْكَاسٌ ولا كُشُفُ ... عند اللّقَاءِ ولا مِيلُ مَعَازِيلُ

شُمّ العَرَانِين أبطالٌ لَبُوسُهُمُ ... من نَسْجِ دَاود فى الهيجا سَرابِيلُ

بِيضٌ سَوابِغ قد شكّتْ لها حَلَقٌ ... كأنّها حَلَقُ القفعاء مَجْدُولُ

يمشُون مشى الجِمالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمُ ... ضربٌ إذا عَرّد السُّود التّنَابِيلُ

لا يفرحُون إذا نَالَتْ رِمَاحُهمُ ... قوماً وليسُوا مَجَازِيعاً إذَا نِيلوُا

لا يقعِ الطّعنُ إلاّ فى نُحورِهُمُ ... ومالهم عن حِيَاضِ الموت تَهْلِيلُ

"كعب بن زهير بن أبى سُلمى المزنى"

هو كعب بن زهير بن أبى سُلمى المزنى،وأمه امرأة من بنى عبد الله بن غطفان يقال لها "كبشة بنت عمار بن عدى بن سحيم" وهى أم سائر أولاد زهير، وهو من المخضرمين ومن فحول الشعراء، وسأله الحطيئة أن يقول شعراً يقدم فيه نفسه، ثم يثنّى به بعده، ففعل فقال:

فمن للقوافى شأنها من يحوكها ... إذا ما ثوى كعب وفوز جرول

يقول فلا تعيا بشئ يقوله ... ون قائليها من يسىء ويعمل

كفيتك لا تلقى من الناس واحداً ... تتحل منها مثل ما يُتَنَخّل

يثقّفها حتى تلين مُتونُها ... فيقصر عنها كُلُّ ما يتمثل[1]

وخرج كعب وبُجير ابنا زهير بن أبى سُلمى إلى رسول الله ﷺ حتى بلغا "أبرق العزاق" وهو ماء لبنى أسد، فقال كعب لبُجير: ألحق الرجل، وأنا مقيم ها هنا، فانظر ما يقول لك: فقدم بجير على رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسمع منه وأسلم وبلغ ذلك كعباً فقال:

ألا أبلغا عنّى بجيراً رسالةً ... على أى شئ ـ ويب غيرك دلّكاَ

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ١٧ تحقيق على محمد البَجاوى بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٨٢ وما بعدها نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٧٠م. تنخّل: اصطفى واختار.

فوّز الرجل: إذا قضى نحبه. شَافَها: جاء بها شائنة معيبة. جرول: الحطيئة.

على خلق لم تلف أمًّا ولا أباً ... عليه ولم تُدْرِك عليه أخاً لكاَ
سَقَاكَ أبو بكر بكأسٍ رويّة ... فَانْهَلَكَ المأمُون منها وَعَلّكا[1]

فبلغت أبياته هذه الرسول ـ ﷺ ـ فأهدر دمه وقال: (من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله) فكتب إليه بجير بهذا الخبر وطلب منه أن يسلم ويقبل إلى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويقول له: إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله قبل ﷺ منه، وأسقط ما كان قبل ذلك، فأسلم كعب، وقال القصيدة التى اعتذر فيها لرسول الله ـ ﷺ ـ واستهلها بقوله:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم عندها لم يجز مكبول[2]

ثم أقبل كعب ودخل المسجد وجلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الأمان. قال ومَنْ أنت؟ قال كعب بن زهير قال أنت الذى يقول: وطلب من أبى بكر أن ينشده الأبيات فأنشده ـ رضى الله عنه ـ حتى بلغ إلى قوله:

سقاك أبو بكر بكأسٍ رَويةٍ ... فانهلك المأمون منها وعلكا

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: مأمون والله[3]. ثم أنشده كعب بن زهير.

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وأشار النبى عليه السلام إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير. وأجازه ـ ﷺ ـ على هذه القصيدة وأعطاه عباءته جائزة له، وأراد معاوية بن أبى سفيان أن يشتريها منه فتأبى عليه ذلك ثم اشتراها من ورثته بعد موته بثلاثة آلاف درهم، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام.

---

(١) ذاته صـ ٨٦.
(٢) ذاته صـ ٨٧.
لم يُجْزَ مكبول. ويروى [لم يُفْدَ] ويروى "عندها" و"مقيم إنُزهان".
(٣) ذاته صـ ٨٧.

الدراسة والتحليل:

حِين أظل الإسلام الجزيرة العربية اعتنق بجير بن زهير الإسلام، ونصح كعب بن زهير بالدخول فيه بيد أن كعباً رفض الانخراط فى سلك الإسلام، واتهم بجيراً بأنه معتوه واتهم الرسول عليه السلام بالكذب والافتراء، فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فغضب وأهدر دمه، فاهتزت نفس كعب حين بلغه ذلك، وخارت قواه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وطلب من القبائل حمايته من هذا الخطر الذى يلاحقه فى كل مكان، فلم تقبل قبيلة من القبائل أن تجيره، أو تسانده ولم يجد بداً آنذاك من اللجوء إلى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والتوسل إليه راجياً منه العفو، والصفح، فهو الحليم صاحب الخلق الكريم ثم دخل كعب عليه المسجد متنكراً فى صلاة الفجر وسلم عليه ـ ﷺ ـ ثم قال له: (لو جاء إليك كعب عائذاً لائذاً أتقبل منه)؟ فقال له أقبل: فقال له كعب: بأبى أنت وأمى يا رسول الله أنا كعب بن زهير، ثم أنشده فاهتز لها الرسول ـ ﷺ ـ وأعجب بها وخلع عليه بردته.

وهو فى هذه القصيدة يمدح رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ مأملاً فى عفوه عمّا بدر منه، مصوراً ما اعتراه من هم وقلق واضطراب نفسى حيث توعده الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأهدر دمه، فالقارئ لأبيات كعب يدرك مدى ما أصابه من هلع وفزع وذعر وخوف، وتحس بالرهبة قد سيطرت عليه تماماً وأحاطت بأقطار نفسه فيحاول أن يستحث النبى ـ ﷺ ـ على العفو عنه وأن يتجاوز عمّا بدا منه. وقد رفعه الشاعر فى كل خطواته وكل ما كان يصبو إليه، فقد اختار من المؤثرات ما يتناسب مع موقفه ليحقق بذلك هدفه الذى يرجوه وهو العفو من الرسول عليه السلام، وفى خطابه للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعمد الشاعر إلى بعض الوسائل الناجحة فى تحقيق غرضه حيث ذكر النبى بالقرآن وما فيه من عبر وآيات، ومن بينها الصفح، والعفو والإعراض عن الجاهلين، والتثبت قبل الاستماع إلى الواشين والكاذبين والفاسقين. واختتم القصيدة بمهارة فائقة، حيث نأى فى مدح رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن مدائح الجاهلية، منتقياً من الأوصاف

ما يتناسب وجلال النبوة ومكانة الرسول العظيمة ﷺ كما أنه فى مدحته للمهاجرين لم يفته ذكر أروع ما سجله التاريخ لهم من بطولات ووقفات مع النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ تذكر فتشكر فقد ضحوا فى سبيل العقيدة بكل غالٍ ومرتخص، امتثالاً لأمره ـ عليه الصلاة والسلام. قد راعي الشاعر فى تنسيق أفكاره مقتضيات الحكمة، وعرضها فى تسلسل واعٍ دقيق. ولذلك تراه يصور موقفه قبل لقائه بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهى تقدمة ضرورية يقتضيها الموقف فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ غاضباً عليه، فالشاعر فى حاجة إلى حديث ملؤه اللطف وإطفاء ثورة الغضب، وتخفيف حدة الانفعال ضده وذلك أضعف الإيمان ثم اتجه إلى الجانب النبوى وخاطبه بخطاب حكيم متزن، وبذلك استطاع الشاعر بمهارته الفنية، وشاعريته القوية، وألفاظه المؤثرة أن يمهد الطريق لنفسه، ويهيئ الفرصة لسماع دفاعه ويفتح القلوب للتنصل مما نسب إليه، واتّهم به وإلقاء التبعة فى ذلك كله على الوشاة، والنّمامين والحاقدين الحاسدين. ثم يعمد الشاعر إلى استثارة العواطف بتصوير ما يقاسيه من هول الموقف وعظم رهبته بين يدى المصطفى فذلك أوقع فى النفس، وأدعى إلى الشفقة. أما المدرع، فقد جعله آخر ما يتوسل به، على الرغم من إجادته له، فقد فطن الشاعر أن التملق المقيت، والتزلف الكاذب الرخيص لا يجدى نفعاً فى عهد المثل الأخلاقية، والقيم والمبادئ العالية لذلك ترى الشاعر نأى بعيدا عنه، وإن كان لابد منه فقد جعله آخر المطاف ونهاية الأغراض، وقد استخدم الشاعر كثرة كاثرة من الصورة البيانية الرائقة مثل: الكناية فى قوله: "لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مجدول" وهى كناية من الثبات وعدم الرجوع القهقرى وقوله: "منه تظل سباع الجو ضامرة" كناية من الثبات وعدم الرجوع القهقرى وقوله: "منه تظل سباع الجو ضامرة" كناية عن سيطرة الأسد، وعدم قدرة السباع على منافسته فى الصيد" وفى قوله: "ولا يزال بواديه أخو ثقة كناية عن ملازمتها له وعدم انفكاكها عنه، ومثل التشبيه فى قوله: "إن الرسول لنور يستضاء به"، وكذلك قوله: "يمشون مشى الجمال الزهر" وهى صور رائعة وقوية وسر

جمالها وقوتها أن الشاعر استوحاها من البيئة المألوفة له ولمن حوله. بعد ذلك نستطيع القول إن ألفاظ النص فيها نقاء وصفاء ولن ينقص منها، أو يغض من قيمتها ورود بعض الألفاظ التى تحوجك إلى الكشف عن معانيها فى المعاجم اللغوية، حيث إنها سمات ذلك العصر، وبخاصة أنه شاعر عاش فى الجاهلية وشعر الجاهليين لا يخلو من أمثال هذه الألفاظ، فتكاد تكون قدراً مشتركاً بين جميع الشعراء آنذاك حيث اللغة فى مهدها وهم أرباب الفصاحة وأمراء البيان، ويكفى استدلالاً على قوة لغتهم نزول القرآن الكريم بها. وقد جاءت أساليب النص متنوعة ما بين خبر وإنشاء... فالأسلوب الخبرى مثل قوله (أنبئت أن رسول الله أوعدني) وذلك يفيد إظهار الأسى والقلق وقوله إن الرسول لنور يستضاء به وغرضه المدح، ومن الأساليب الإنشائية قوله: (مهلاً هداك الذى أعطاك ناقلة القرآن)، ومعناه الرجاء والدعاء، لأن الأمر من الأدنى إلى الأعلى (رجاء) وهو من الأساليب البيانية الرائعة، وقوله: (لا تأخذنّى بأقوال الوشاة)، وهو أسلوب نهى خرج إلى معنى الرجاء والتضرع والدعاء. وموسيقى الأبيات تتمثل فى الوزن والقافية، فالقصيدة على وزن واحد، وهى منتهية باللام المضمومة وذلك ما يسمى بالموسيقى الخارجية للأبيات وحظ الأبيات جاء موفوراً فى الموسيقى الداخلية متمثلاً فى بعض المحسنات البديعية مثل المقابلة فى قوله:

لا يفـــرحون إذا نالـــت رمـــاحهم قـــوماً وليـــسوا مجازيعـــاً إذا نـــيلوا

فهى مقابلة رائعة، كما تتمثل الموسيقى الخفية فى انتفاء العبارات الملائمة للمعنى، واستخدام الكلمات ذات الإيحاءات العاطفية من مثل قوله (أوعدني) وهى توحى بالتهديد. وقوله (مأمول) وهى تنبئ بتجدد الأمل، وقوله (يرعد) الموحية بالرهبة وقوله (ذى نقمات) وتوحى بالقدرة على الانتقام وقوله "من خادر من ليوث الأسد" الموحية بالقوة أيضاً إلى غير ذلك من الكلمات التى يعج بها النص، والتى تغص بالألفاظ والعبارات ذات الإيحاء الرائع الأخّاذ ـ والأبيات تُعَدُّ لوناً من ألوان الشعر الإسلامى،الذى يمثل حقبة من حقب الدعوة الإسلامية التى نهض النبى ـ

ﷺ ـ فيها بأعباء الدعوة إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه فدخل الناس فى دين الله أفواجاً وكفرت طائفة مكابرة معاندة، فاز الذين انخرطوا فى سلك الإسلام، ووقف المعاندون يتربصون بالدعوة وصاحبها ويقعدون لها كل مرصد، ويشهرون فى وجهها كل سلاح، صادين عن سبيل الله، حقدًا وحسداً من عند أنفسهم على الدعوة وصاحبها، وظلوا كذلك، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فدخلت ثلة منهم الإسلام، وأصرت أخرى على عنادها، وكان شاعرنا واحداً من الذين ناوءوا الدعوة، وصاحبها بالهجاء والتكذيب، ثم عاد إلى رشده، واستغفر لذنبه، وطلب العفو من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فعفا عنه هو ونفر من أمثاله مثل (عبد الله بن الزبعري) وكان من شعراء المشركين، فتحول كفرهم إلى إيمان وهجاؤهم إلى مديح. وهذه الأبيات اقتطفناها من قصيدة (كعب بن زهير) التى تبلغ (ثمانية وخمسين بيتاً)، استهلها بالغزل فيقول:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول　　متيم إثرها لم يفد مكبول

ثم ينتقل إلى وصف الناقة فيصفها أبدع وصف فيقول:

ولن يُبلِّغها إلا عذا فرةٌ　　فيها على الأين إرقالٌ وتبغيل

ثم ينتقل إلى وصف حاله، ثم مدح الرسول وصحابته. وقد اختلف النقاد فى هذه القصيدة، فيرى بعضهم أن الشاعر أعد القصيدة قبل أن يبدأ رحلته إلى المدينة، ولقاء النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويرى بعض آخر ومنهم "الباجوري" أن الشاعر أنشأ قبل أن يقدم المدينة أبياتًا منها، فلما وصل إلى النبى ـ ﷺ ـ وحظى منه بالقبول والعفو، أنشأ هذه القصيدة على وجه آخر غير ما صنع عليه تلك الأبيات ومعنى هذا أن الشاعر ارتجل القصيدة، بيد أن بعض الباحثين يرى أن القصيدة أعدت إعداداً دقيقاً، مستدلين على ذلك بأن كعب بن زهير لم يكن من أهل البديهة والارتجال، بل إنه من شعراء التحضير والتنقيح وتشذيب الشعر وتهذيبه قبل عرضه على الناس، ولا غرو فهو ابن زهير بن أبى سُلمى شاعر الحوليات وقد كان

"كعب" من رواة شعره، كما أنه كان تلميذا له فى مرانه ودربته على قول الشعر وقد صقله أبوه "زهير" حتى أجاده وبرع فيه، وورث ذلك عنه.

وأمر ثانٍ، وهو ما فى القصيدة من آثار الصنعة والإحكام وانتقاء العبارات، وتخير الألفاظ. كل ذلك لا يتأتى مع الارتجال، ناهيك بتلطفه فى الانتقال بين الموضوعات المتباينة، ثم إحكامه فى بناء الصور، وإلحاحه على المعنى الواحد أحياناً، وهذا من شأن المحبر المنقح المتأنى فى صنعته. ونحن نرى أن منهج "كعب" فى الاعتذار متصل بعض الاتصال بمنهج "النابغة الذبياني" فى اعتذاره "للنعمان بن المنذر"، وذلك فى الاستعطاف وطلب العفو، بيد أن منهج "كعب" فى الاعتذار يقوم على وصف حاله، وما قاساه من قلق واضطراب، بعد أن بلغه أن الرسول أهدر دمه، واسترضاء النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإخلاء قلبه لسماع عذره، والتبرؤ من التهم التى ألصقت به وأنها محض اختلاق من الوشاة ثم وصف ما يعانى من هلع ورعب لدى مثوله بين يدى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم يمتدح النبى ﷺ وأصحابه من المهاجرين رضى الله عنهم. وهو فى هذا يلتقى فى الخطوط العامة مع النابغة الذبيانى فى اعتذاره للنعمان بن المنذر فهو يقول (نبئت أن رسول الله أوعدني) والنابغة يقول (نبئت أن أبا قابوس أوعدني) ولا ريب فى أن النابغة متقدم على كعب، ومع ذلك فإننا نجد بونًا شاسعاً بين الشاعرين فى منهج الاعتذار، فالنابغة الذبيانى "اتجهت همته فى الاعتذار إلى النعمان إلى إظهار تألمه من غضبه عليه، فيشبه نفسه فى شدة الألم وقساوته بالمريض على فراشٍ من الشوك، فيقول:

فَبِتُّ كأن العادئات فرشن لى ... هراساً به يعلى فراشى ويقشب

ثم يتعرض إلى الناس فى إيجاز فيقول:

فلا تتركنى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلى به القار أجرب

أما "كعب" فقد كان جل همه ما لاقاه من الناس، وبغضب الرسول عليه أصبح طريداً منبوذاً بين شماتة الأعداء، وتنكر الأصدقاء والأقرباء مما دفعه إلى اليأس والقنوط، وعنايته بتوضيح هذه الآثار المؤلمة دليل على قوة شاعريته، وبراعته وصدق عواطفه، فقد استطاع بذلك كله أن يظهر نفسه بمظهر المذعور المطارد من المجتمع بأسره، وذلك أوقع فى النفس وأشد تأثيرا، وهو أنجح فى نيل المطلوب من استجلاب العطف، وحفو القلب.

وفى إنكاره للتهمة التى لحقت بالنابغة يعتمد على الحلف، على حين يمر "كعب" بهذا الإنكار مروراً خاطفاً طاوياً هذا الإنكار فى العفو عنه، حيث إن ما بلغه من صنع الوشاة، وبذلك لا يحتاج إلى تأكيد ما ذهب إليه من إنكار بالقسم بالحلف كما فعل النابغة والنابغة يعيب على الوشاة، ويصب عليهم جام غضبه، ويصليهم سوط عذابه بأقذع الهجاء ولعله أراد بذلك مخادعة النعمان ونقله إلى معركة جانبية مع الوشاة، ولكن كعباً لم يتعرض لهم بسوء لعلمه أن ذلك اللون غير مقبول لدى الرسول ـ ﷺ ـ وأنها بضاعة مزجاة لديه لذلك عزف الشاعر عن ذلك اللون، والنابغة يعد المديح عنصراً مهماً وأساساً فى منهج اعتذاره للنعمان، ولذلك عنى به وأطال فيه، وبناه على المبالغة، لأنه يخاطب ملكاً جاهلياً، ففعل ذلك إرضَاءً لغروره، فقبس له من مناقب الجاهلية ما يشاكل طغيانه وجبروته، مع أن كعباً لم يسلك هذا المسلك، فالإسلام طمس كل معالم الجاهلية عدا ما يتفق مع المنهج الإسلامى المستند إلى الكتاب والسنة ولذلك لم يمدح الرسول ـ ﷺ ـ إلا ببيت واحد، وهو:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ونحن نرى أنه ربما كان قصد الشاعر "كعب بن زهير" أن يتخذ ذلك البيت مدخلاً لمدح المهاجرين، وإلا فما الذى منعه من إطالة المديح إن كان يتغيا غاية مقصورة أو عنصراً أساساً فى الاعتذار. ويأخذ بعض النقاد على كعب بن زهير أنه أسرف فى وصف ناقته، وأغرب فى وصف الأسد، بل وكان معاداً مكرورا، كما

عيب عليه كثرة المحذوفات التى ترتب عليها عناء ومشقة فى الوصول إلى المعنى، وذلك من مثل قوله:

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

ونحن مع هؤلاء النقاد فيما ذهبوا إليه، حيث إن المقام مقام اعتذار لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان أحرى به أن تجيئ أبياته كلها أو جلها على الأقل فى الاعتذار ومدح رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكننا نراه لم يمتدح النبى ـ ﷺ ـ فى قصيدة تبلغ أبياتها ثمانية وخمسين بيتاً إلا ببيت واحد وفى الرسول وشمائله، وخلاله وصفاته ما هو متسع لقصائد عدة ودواوين كثيرة تسجل محامده، ومناقبه، وخلقه ﷺ. أما أنه يفرغ جلّ أبيات القصيدة فى وصف الناقة، وهو فى مقام كهذا المقام فمما لا ريب فيه أن ذلك أمر معيب لدى الشاعر ولا يقبل من مؤيديه دفاع أو اعتراض، بيد أننا لا نغفل محاسن القصيدة، وأن هذه الهنات، وتلك المآخذ لا تحط من قدر الشاعر وعظمة القصيدة، وجمال لفظها، ورصانة أسلوبها، وجمال تعبيراتها، وأن ذلك يقع لكثرة كاثرة من فحول الشعراء. وحسب الشاعر أن ملامح الأصالة والقوة تبدو فى جواب القصيدة، ولا غرو فقد كان أبوه شاعرًا وخاله "بشامة بن الغدير" شاعراً وأختاه سلمى والخنساء شاعرتين وأخوه بجير شاعرا، فكأنما هؤلاء القوم خلقوا للشعر، وصيغت نفوسهم منه. فقد جاء الشاعر سرّ أسرته ونسج على منوالهم. ومع هذا، فإن القصيدة حققت هدف صاحبها، ونال ما تمناه من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث نال الأمان والعفو والمكافأة الغالية، حيث خلع عليه النبى بردته مكافأة وإعجاباً. وقد كان للقصيدة أثر بالغ، حيث تعلق بها الشعراء فى كل عصر، وأكثروا من معارضتها، والنسيج على منوالها، حتى إن المؤرخين يرون أن "بنذار الأصفهاني" كان يحفظ "تسعمائة قصيدة" مطلع كل قصيدة منها "بانت سعاد" ولم يكتف الشعراء بمعارضة هذه القصيدة فى الوزن والروى فحسب، بل أكثروا من مدح النبى ـ ﷺ ـ على كثرة كاثرة من الأوزان، والقوافى المتنوعة، وخلفوا من ذلك ثروة موفورة، وأفردها علماء "تاريخ الأدب" باسم خاص، بل جعلوه لوناً من ألوان "المدائح النبوية" ووسموه باسم يخصه وهو "فن المدائح النبوية".

"أبو محجن الثقفى"

هو عبد الله، وقيل عمرو، وقيل مالك بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى،وقيل اسمه "أبو محجن" وهو كنيته أيضا. توفى عام ٦٥٠م[١]. ويقول "الآمدى" هو حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة الثقفى.

وهو القائل:

لما رأينا خيلاً محجلة ... وقوم بغى فى جحفل لجب
طرنا إليهم بكل سلهبة ... وكل صافى الأديم كالذهب
وكل عراصة مثقفة ... فيها سنان كشعلة اللهب
وكل عضب فى متنه أثر ... ومشرفى كالملح ذى شطب
وكل فضفاضة مضاعفة ... من نسج داود غير مؤتشب[٢]

وهو من ثقيف وكان مولعاً بالشراب مشتهراً به. يقول صاحب الأغاني: هو من الشعراء المخضرمين الذى أدركوا الجاهلية والإسلام، وهو شاعر فارس شجاع معدود فى أولى البأس والنجدة، وكان من المعاقرين للخمر، وأقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحدّ عليه مراراً، ثم نفاه إلى جزيرة فى البحر، يقال لها "حضوضي"[٣]

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان صـ ١٣٣ وما بعدها. ط. دار الهلال سنة ١٩٥٧م. وأيضا أبو الهندى حياته وشعره للمؤلف صـ ٦ ط دار الأمانة بالقاهرة.

(٢) المؤتلف والمختلف للآمدى صـ ٩٥ رقم الترجمة "٢٦٧" مكتبة القدسى دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ط الثانية سنة ١٤٠٣ هـ سنة ١٩٨٢م.

(٣) الأغانى للأصفهانى ج٢١ ص١٣٧ وما بعدهما ط دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

وبعث معه حارساً يقال له "ابن جهراء" فهرب منه على ساحل البحر، ولحق بسعد بن أبى وقّاص، ثم ذكر هربه من الحارس بن جهراء، فقال:

الحمد لله الذى قد نجاني وخلصنى ... من ابن جهراء والبوصى قد حبسا
من يجشم البحر والبوصى مركبه ... إلى حضوضى، فبئس المركب التمسا
أبلغ لديك أبا حفص مغلغلة ... عبد الإله إذا ما غار أو جلسا
أنى أكر على الأولى إذا فزعوا ... يوماً وأحبس تحت الراية الفرسا
أغشى الهياج وتغشانى مضاعفة ... من الحديد إذا ما بعضهم خنسا

وكان سعد بن أبى وقاص حبسه لشربه الخمر فلما كان يوم القادسية، وبلغه ما يفعل المشركون بالمسلمين، وهو عند "أم ولد لسعد بن أبى وقاص" قال:

كفى حَزناً أن تطعن الخيل بالقنا ... وأُتْرَكَ مشدوداً علىّ وثاقيا
إذا قمت عنّانى الحديدُ غُلقَتْ ... مغاليقُ من دونى تُصمُّ المناديا
وقد كنتُ ذاَ أَهْلٍ كَثيرٍ وأخوةٍ ... فقد تركُونى واحداً لا أخَا لِيَا
هلمَّ سلاحِى، لا أبالكَ، إنَنِي ... أَرَى الحَرْبَ لا تزدادُ إلاّ تَمَادِيا

فقالت له أمّ ولد سَعْدٍ: أتجعلُ لى إن أنا أطلقتك أن ترجعَ حتى أعيدك فى الوثاق؟ قال: نعم، فأطلقته، وركب فرساً لسعدٍ بلقاءَ، وحمل على المشركين، فجعل سعد يقول: لولا أن أبا محجنٍ فى الوثاق لظننتُ أنه أبا محجن وأنها فرسى،وانكشف المشركون وجاء أبو محجن فأعادته فى الوثاق، وأتت سعداً فأخبرته، فأرسل إلى أبى محجن فأطلقه، وقال: والله لاحبستك فيها أبداً، قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها بعد اليوم أبداً.

ودخل ابن أبى محجن على معاوية، فقال له مُعاوية أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنّى إلى جنب كرمة ... تُروّى عظامى بعد موتى عروقُها

ولا تدفنّـــى بـــالفلاة فإننـــى أخـاف إذا مـا مـت أن لا أذوقُهـا

فقال ابن أبى محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره، قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسألِ الناس: ما مالى وكثرته وسائل القوم: ما حزمى وما خُلقى
القـوم أَعلـم أنـى مـن سـراتهم إذا تطـيش يـد الـرعديدة الفَـرق
قد أركب الهول مسدولاً عساكره وأكـتم الـسر فـيه ضـربةً العـنَق[1]

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ط ص ٣٣٦، ٣٣٧ نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ـ لبنان سنة ١٩٦٤م.

شكوى وتطلع إلى الجهاد فى سبيل الله
لأبى محجن الثقفى

كَفَى حَزَناً أن تلتقىَ الخيلُ بالقَنَا وأُتْـركُ مشدُوداً علىَّ وَثَاقيا
إذاَ قمتُ عنّانى الحديدُ وأُغلِقَتْ مَصَارِعُ دُونى قد تَصُمّ المُنَادِياَ
وقد كنتُ ذَا مال كثيرَ وإخوة فقد تركونىِ واحداً لا أَخَالياَ
وقد شَفَتْ نَفْسِى أنّتى كل شادق أعالج كبلا مصمتا قد بَرانِياَ
فللّه دَرِّى يومَ أتركُ مُوثقاً وتَذْهَلُ عنِّى أُسْرَتىِ ورِحالِياَ
حُبستُ عن الحرب العوانِ وقد بَدَتْ وإعمالُ غيرى يومَ ذَاك العَوَالِياَ
ولله عهدُ، لا أخيسُ بعهده لئن فرجت ألاّ أزور الحَوَانِياَ

الدراسة والتحليل:

لقد كان أبو محجن الثقفى مشغوفاً بالشراب ومعاقرته الخمر، فنفاه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى جزيرة فى البحر يقال لها.. "حَضَوْضاَء" وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ثم رأى معركة القادسية قائمة بين المسلمين والفرس فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة فوجد "أبو محجن" الفرصة سانحة للتخلص من النفى، ويشارك فى الجهاد المقدس، ولكنّ سعد بن أبى وقاص قائد جيش المسلمين علم بأمره فأسره، فتضاعف الحزن عليه من كل جانب فانطلق. "أبو محجن" يعزف على قيثارة الشعر هذه الأبيات التى تحمل زفرته، حيث حرم الجهاد فى سبيل الله، ثم

يتطلع إلى من يفك أسره، ويخلى سبيله ليشترك فى المعركة الدائرة بين المسلمين والفرس فكان ذلك سبباً فى إطلاق سراحه، وقد اشترك فى هذه المعركة وسجل فيها بطولات نادرة، وشجاعة فائقة. وقد جاءت أبياته زفرات متصاعدة وأنّات حزينة، كما كانت أبياته استعادة لذكرياته وتصويراً لآلامه، ورغبة فى التخلص من الأسر والانطلاق إلى الجهاد ضد الفرس، ثم يتعهد أن يكون بمنأى عن الفجور ومعاقرة الخمور، فينطلق فى أبياته قائلاً: إنك فى أسىً شديد، وألم كبير، ولوعة قاسية، وأشد ما يضاعف أحزانى ويزيد من آلامى أن أرى المعارك محتدمة والخيول تكر وتفر، وتقبل وتدبر، والرماح متشابكة ومع كل هذا أرى نفسى رهين المحبسين. السجن والقيد ومع ذلك لا أرى لى مكاناً فى هذه المعارك التى تدور رحاها وأنا بمنأىً عنها، فإذا أردت الاشتراك فى المعارك الدائرة بين المسلمين والفرس حالت دون ذلك قيود من الحديد أثقلونى بها، وأبواب موصدة فى وجهى فلم أجد سبيلا إلى الحرب، أو طريقاً إلى القتال، وقد كنت ذا مال وفير، وأهل كثير، وإخوة وأصدقاء، فضاع المال، وهرب الأهل، وفرّ الخلاّن والأصدقاء، وأصبحت لا مال لى، ولا أعرف لى أخاً أو صديقاً. وها هو ذا جسمى براه القيد، وأرهقه السجن، وأمضّه الأسى، ولم ينقطع عنّى ذلك العذاب يوماً من الأيام، بل أشهده كل يوم، وأحس به كل لحظة من نهار مما كان سبباً فى عذاب نفسى، وسهاد جفنى. قلله تلك الإرادة التى أملكها، وهذه القوة التى أحتويها، وللتاريخ هذه الليالى التى أقضيها مكبلاً بالقيود، موثقاً بالأغلال بعيداً عن المال والأهل فى ربوع السجن وقد زهدت فى الأسرة وغفل عنى الأصحاب، وحيل بينى وبين هذه المعركة القاسية، ولم تتح لى فرصة الاشتراك فيها كما أتيحت لغيرى من الأبطال المغاوير، ولو أنها أتيحت لى لحققت ألواناً من المجد، وسجلت صفحات من الخلود، والشاعر فى هذه الأبيات يأسى لهذه الحقبة العصيبة التى مر به فى سجنه ويرسلها زفرات حزينة باكية، ينعى فيها حظه الأغبر الذى قضى عليه أن يعيش فى غياهب السجون، ويحال بينه وبين تحقيق المجود للإسلام والمسلمين، ويأخذ على نفسه عهداً بينه وبين ربه سبحانه، لئن زالت هذه الغمة،

وفرج الله كربه، وخرج من سجنه لن يشرب الخمر مرة أو يزور حاناتها. والأبيات تحس فيها حرارة العاطفة وصدق النفس، فقد خضع "أبو محجن" لعاطفة كانت مزيجاً من الألم الممض، والأسى الزائد، والضيق الشديد وانتقى من العبارات ما يجلى هذه العاطفة القوية. نلمس ذلك فى قوله: "كفى حزناً" و"عنانى الحديد" و"غلقت مصارع دونى" و"تركونى واحداً لا أخاليا" و"تذهل عنى أسرتى"، كما تتجلى فى أبيات الشاعر آثار الإسلام فى نفسه، حيث إن الإسلام حوله من شارب الخمر إلى فدائى يقدم نفسه فداءً للإسلام، فتراه معذب النفس والضمير، حيث رأى الحرب مشبوبة بين المسلمين والفرس فى وقعة القادسية، ويرى نفسه وقف مكتوف الأيدى، مودعاً غياهب السجن، والفرصة غير متاحة له بالاشتراك فى المعركة، كما تظهر آثار الإسلام فى العهد الذى قطعه على نفسه فى هجر حانات الخمر، وذلك إذعان للقوة الخفية التى ملكت عليه إحساسه وإرادته، واستولت على فؤاده ولبه. ويكاد النص يخلو من الأخيلة، والصور، فيما عدا ألواناً من الكنايات الرائعة التى أبرزت المعنى ودللت عليه من مثل قوله: "وأترك مشدوداً على وثاقيا" وهى كناية عن تقييده. وقوله "غلقت مصارع دونى" كناية عن حبسه وقوله "تركونى واحداً لا أخاليا" كناية عن الهجر والقطيعة، وقوله "وتذهل عنى أسرتى" كناية عن النسيان والبعد عنه"، وقوله "لا أزور الحوانيا" كناية عن التوبة وترك معاقرة الخمر. وفى الأبيات كثرة كاثرة من الأساليب الخبرية الدالة على الحسرة والحزن من ذلك قوله "كفى حزناً" وقوله "وقد كنت ذا مال كثير وأخوة" وقوله "حبست عن الحرب العوان" ونرى أن النقاد قد عابوا على أبى محجن استعماله لأسلوب المدح فى قوله "فلله درى" فى البيت الخامس، وهو:

فلله درى يوم أترك موثقا وتذهل عنى أسرتى ورحاليا

وهم يرون أن المقام لا يتطلب مديحاً، وكان قميناً بالشاعر أن يستخدم أسلوباً سواه دالاً على الأسى والحسرة والتفجع والألم الذى يعتصر القلب، وكان فى مكنته

أن يقول "فلله أمرى". وقد أجاد الشاعر استخدام الموسيقى الملائمة للشكوى حيث اختار القافية اللينة الممثلة فى الياء الممدودة وهى أقوى فى إبراز أنينه وأساه. كما تخير من الأوزان بحراً طويلاً يتسع لإفراغ آلامه وأحزانه فيه إلى جانب العبارات الملائمة، والكلمات المناسبة التى تتفق مع الغرض الذى كتب فيه، وذلك من شأنه أن يحقق لوناً من ألوان الموسيقى الخفية، التى تثير فى النفس كثرة كاثرة من مشاعر لحن والإحساس بالجمال. وهذا لون من ألوان الشعر الإسلامى الذى يصور نزعة من نزعات الأبطال والبطولة كما يوضح جانب الحرص على الجهاد فى سبيل الله، والجهاد من أجل العقيدة. وتبين الأبيات مدى تألم المجاهد إذا ما حيل بينه وبين رغبته فى الدفاع عن العقيدة. والجهاد فى سبيل رفعتها، وذلك يوضح مدى تأثير العقيدة فى نفوس المسلمين المجاهدين فى سبيل الله. ويعد الشاعر "أبو محجن الثقفى" من الشعراء المقلّين، ومع هذا فقد جاء شعره صورة صادقة للشعر الإسلامى، حيث إنه جمع إلى وضوح الفكرة نبل المقصد، وسموّ الهدف، وسهولة العبارة، وجودة التعبير، وانتقاء الألفاظ واختيار الصور والأخيلة. كما يومئ النص إلى ما كان يتميز به الخليفة العادل عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – من حزم وعزم، وحرص على بث روح الإسلام بين صفوف المسلمين، فسيدنا عمر – رضى الله عنه – مع حبه للشعر، وتذوقه له، ورغبته فى الاستماع إليه، لم يعف الشعراء من توقيع العقوبة عليهم حينما يفرطون فى حق دينهم، فقد سجن الشاعر، ونفاه إلى جزيرة "حضوضى"[1] حين علم إدمانه شرب الخمر كما عاقب الحطيئة لهجاء "الزبرقان بن بدر" حتى تاب وأناب وكفّ عن هجاء المسلمين، وهكذا كان الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مثالاً للحاكم المسلم اليقظ، ورمزاً للحكومة العادلة القوية.

ويعد النص نموذجاً رفيعاً من نماذج التربية الإسلامية، وهو يؤكد مبدأ من المبادئ المتفق عليها بين رجالات التربية فى العصر الحديث، وهو مبدأ العقوبة لمن

---

(١) الأغانى جـ٢١ صـ١٣٧ وما بعدها. طـ. دار الفكر – بيروت – لبنان.

أساء، والعقوبة فى نظر الإسلام ليست انتقاماً من المسئ، وإنما هى تشذيب لنفسه، وتهذيب لخلقه وإيقاظ لضميره، وتثبيت لإيمانه، ولذا جاءت عقوبة عمر لأبى محجن علاجاً لنفسه المريضة، وإيقاظاً لضميره الغافل، وإيقافاً لنزعته اللاهية.

ويرى بعض النقاد أن الإسلام حارب الشعر، وانبرى للشعراء، ونحن نرى أن الإسلام هذب الشعر وأدب الشعراء، فلم يعرف عن الإسلام أنه وقف موقف التحدى من شاعر، إلا إذا حاد عن الحق، أو تهجم على العقيدة، أو تعرض لعورات المسلمين، حينذاك ينبرى الإسلام لهؤلاء الشعراء ليصون دعوته، ويحصن أتباعه ضد ألسن تنطق بالبغى، وتنطلق بالعدوان، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1].

(١) سورة الشعراء الآيات من ٢٢٤ إلى آخر السّورة ٢٢٧.

الحُطَيْئَة

هو جَرْوَل بنِ أوس من بنى قُطيعة بن عبس، ولقب الحطيئة لقصره وقربه من الأرض، ويكنىَّ أبا مُليكة، وكان راوية "زهير". وهو جاهلى إسلامى، ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة رسول الله – ﷺ – لأنى لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب، إلاّ أنى وجدته يقول فى أول خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – حين ارتدت العرب:

أَطَعْـنَا رَسُـولَ اللهَ إذْ كَـانَ حَاضِـراً ... فَيَالَهْفِـى مـا بـالُ ديـن أبـى بكـر
أَيَـرِثُها بكـراً إذا مَـاتَ بعـدهُ ... فَـتِلكَ وَبَـيْتِ اللهِ قَاصِـمِةُ الظَّهْـرِ

ومن المشهور عنه أنه قيل له حين حضرته الوفاة: أوص يا أبا مليكة مالى لذكور من ولدى دون الإناث، فقالوا: إن الله لم يأمر بهذا فقال: لكنّى آمر به! ثم قال: ويل للشعر من الرواة السوء، وقيل له: أوص للمساكين بشئ، فقال: أوصيهم بالمسألة ما عشوا، فإنها تجارة لن تبور! وقيل له: اعتق عبدك "يساراً"[(١)]. فقال: اشهدوا أنه عبد ما بقى "عيسى"! وقيل له: فلان اليتيم ما توصى له بشئ؟ فقال أوصى بأن تأكلوا ماله، وتنكحوا أمه! قالوا: فليس إلا هذا؟! قال: احملونى على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم، لعلى أنجو! ثم تمثل بشعر لضابىء بن الحارث البرجمى، فأنشد قائلاً:

---

(١) الشعر والشعـراء لابن قتيبة الدينورى جـ٢٣٨ دار الثقافة – بيروت – لبنان سنة ١٩٦٤م والأغانى جـ٢ صـ٤١ والخزانـة ط صـ٨، ٤ وطبـقات ابـن سـلام الجمحى صـ٩٣ وما بعدها وجـ٣ صـ ٢٨٧.

لكـــل جديـــد لـــذة غـــير أنّنـــى رأيــت جديــد المـوت غـير لذيــذ
لــه خطــة فــى الخلــق ليــست بكّــرٍ ولا طعـــم راحٍ يـــشتهى ونبـــيذ
تنحـــىَّ فاقعـــدى منـــى بعـــيداً أراح الله مــــــنكِ العالميــــــنا
ألم أوضـــح لـــك البغـــضاء منّـــى ولكــــن لا أخالَــــك تعقليــــنا
أغـــربالاً إذا اســـتودعت ســـراً وكانـــــوناً علـــــى المتحدّثِيـــــنَاَ
جـــزاكِ اللهِ شـــرّاً مـــن عجـــوزٍ ولقّـــاك العقـــوق مـــن البنيـــنا
حـــياتُك مـــا علمـــت حـــياةَ سُـــوءٍ ومـــوُتكَ قـــد يَـــسُرُّا الـــصَّالحِيناَ

وقال لأبيه:

لحـــاكَ اللهُ ثـــم لَحـــاَكَ حقـــاً أبـــاً ولحـــاك مـــن عـــمٍّ وَخَـــال[1]
فـنعم الـشيخُ أنـت لـدى المخـازِى وبـئس الـشّيْخ أنـت لَـدَى المعـالِ
جمعـــت اللّـــؤمَ لا حـــيّاك ربِّـــى وأبـــواب الـــسفاهة والـــضّلالِ

وقال لنفسه:

أبـــت شـــفتاى الـــيوم إلا تكلمـــاً بـــسوء فمـــا أدرى لمـــن أنـــا قائلـــهْ
أرى لى وجهـــاً شـــوه الله خلقـــه فقُـــبّح مـــن وجـــهِ وقُـــبّح حاملـــهْ

وقال عبد الرحمن بن أبى بكرة: رأيت الحطيئة بذات عرق فقلت له: يا أبا مليكة أىّ الناس أشعر؟ فأخرج لساناً ذلقاً، كأنه لسان حيّة، فقال: هذا إذا طمع. وهجا الزبرقان بن بدر فقال:

دَعِ المكَـــارِمَ لا تـــرحلْ لِبُغْيَـــتها واقْعُـدْ فإنَّـك أَنْـتِ الطَّاعِمُ الكَاسِى

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وأنشده البيت

---

(١) ذاته صـ٢٤٠.

الأخير "دع المكارمَ"، فقال له عمر: ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعمًا كاسيا؟! قال: إنه لا يكون فى الهجاء أشد من هذا، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك فقال: لم يهجه، ولكن سَلَحَ عليه، فحبسه عمر، وقال يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين فقال وهو محبوس:

مـاذا تقـول لأفـراخ بـذى مـرخ حمـر الحواصـل لا مـاء ولا شـجر

ألقـيت كاسـبهم فـى قعـر مظلمـة فاغفـر علـيك سـلام الله يـا عمـر

فرق له عمر وخلّى سبيله، وأخذ عليه ألاّ يهجوَ أحداً من المسلمين.

فى الكرم (للحطيئة)

وطاوِى ثلاَث عاصب البطنِ مرمل ... ببيداءَ لم يعرف بها ساكن رسماَ

أخَي جفوة فيه من الإنسِ وحشةً ... يرى البؤْسَ فِيهاَ من شَرَاسته نُعمى

وأفردَ فى شِعْبٍ عَجُوزاً إزاءها ... ثلاثةُ أشْباح، تخالُهُمُ بُهْما

حفاةً عراةً ما اغتذوْا خُبْزَ ملة ... ولا عرفُوا للبّر مذ خُلِقُوا طَعْماَ

رَأىَ شَبَحاً وسط الظّلامِ فَراَعَهُ ... فلمّا رأى ضيفاً تَشَمّر واهْتَماً

فقال: هَيَا ربّاهُ ضَيْفٌ ولا قِرَىً ... بحقّك لاَ تَحرِمْه تا الليلة اللّحَماَ

فقال ابنهُ لما رآهُ بحيرة ... أيا أبتِ اذبحني ويسّر له طُعْماَ

وَلاَ تَعْتَذِرْ بالعُدْمِ عَلَّ الذى طَراَ ... يَظُنُّ لَنَاَ مالاً فيوسعنا ذمّا

فروَّى قليلاً ثم أحجمَ بُرهَةً ... وإن هُو لم يذبحُ فتاهُ فقد هَماً

عطاشاً تريدُ الماء فانساب نحوهَا ... فأرسلَ مِنْها من كِنَانَتِه سَهْماَ

فَخَرّتْ نُحوصٌ ذاتُ جَحْشٍ سَمِينَة ... قد اكتنزتْ لحما وقد طبقت شَحْماَ

فيا بشرُه إذا جرها نَحو قومه ... ويا بِشْرُهم لما رَأَوْا كَلْمَها يَدْمى

وباتوا كراماً قد قَضَوْا حقّ ضيفهم ... وما غَرمُوا غرْماً وقد غَنِموُا غنما

وبات أبوهم من بَشَاشَتِه أبا ... لضيفِهُمُ والأمّ من بشرِها أماً

الدراسة والتحليل:

إن الكرم من الأخلاق المحمودة لدى العرب قديماً وحديثاً، اشتهر به الأسخياء والكرماء من أمثال "حاتم الطائى" الذى نزل به قوم فى سنة شهباء مجدبة، فلم يجد قرىً يقدمه للأضياف غير فرسه المحبب إلى نفسه، والقريب من قلبه، وقد كانت للخيل منزلة سامقة، فقد كانوا يفضلونها على عيالهم، ويرضعونها ألبان الإبل، ويجيعون أولادهم، مفضلين الخيل عليها، ومع هذا نرى حاتماً الطائى ينحر فرسه لأضيافه حتى لا يبيتوا جياعاً.

وقد أثر عنه أنه كان إذا أقبل عليه ضيف؛ هشّ فى وجهه وهو يقول:

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ... ويخصب عندى والزمان جديب

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ... لكنما وجه الكريم خصيب

ونرى الحطيئة يصور لنا فى هذا النص صورة أعرابى معدم، يعيش فى أراض مقفرة قاحلة، وينزل به ضيفه فيلبى الأعرابى نداء الكرم المتأصل فى نفسه، ويهم بتقديم ابنه لضيفه، لولا ظفره بصيد يقدمه طعاماً للضيف، وفداءً لابنه، وبشراً وسروراً لزوجه، فهو يصور حالة المعدم اللاجئ إلى الصحراء، ونزول الضيف فى ساعة متأخرة من الليل، وحيرة العربى فى إكرامه، وما يقدمه له من قرى، ثم تنزاح الغمة، وتنكشف الكربة، ويأتى الفرج من أوسع أبوابه ويحل القدر مشكلته، والأزمة التى ورطته، فيرزق بصيد يقدمه قرى للضيف، ثم تحيط به السعادة، ويشمله البشر، كما يسعد الجميع بالحصول على الصيد وحل الأزمة. تلك قصة رجل فقير، يعوزه الفقر، وتصيبه الفاقة، ويخرجه الضيق من بلاده إلى شعاب الجبال، ليكون بمنأى عن الناس، وقد بلغ منه الجوع مبلغه، فيعصب بطنه للتخفيف من آثار الجوع المؤلم، وهو يعيش فى صحراء موحشة، وقد غلب عليه الخلق الجاف، وقساوة الطبع، فنفر من الناس، ولجأ إلى الصحراء، فأصبح يرى العيش فيها وحيداً فريداً نعيماً ورغداً. وأنزل الأعرابى أسرته فى هذا المكان المقفر النائى، وبصحبته امرأته العجوز وأطفاله الثلاثة الذين أصيبوا بالهزال من شدة

الجوع وبدا الأطفال فى شكل أشباح يظنها الرائى حملاناً صغيرة عجفاء، وهم حفاة عراة، خلت بطونهم من الطعام، ولم يذوقوا منذ نشأتهم الخبز. وبينما هو على هذا الحال من جوع وبؤس، إذ رأى فى وسط الظلام شبحاً يقبل من بعيد، فاضطرب ووجل، وأجال النظر فإذا بالشبح ضيف قادم؛ فتهيأ له وأعد نفسه لاستقباله، وراح يهتف من أعماق نفسه، متجهاً إلى ربه سبحانه قائلاً: يا رب ضيف قادم ولا قرى له، أسالك أن توفقنى إلى إكرامه، وألا تحرمه فى هذه الليلة طعاماً من اللحم يقدم له، ويرى الإبن أباه فى هذه الحيرة، فيسرع إليه فى لهفة وطاعة قائلاً له: يا أبتِ لا تستبد بك الحيرة، ويسر الطعام لضيفك ولو كان ذلك بذبحى، حتى تقوم بوّاجبه، وإكرام ضيافته، وحذار أن تعتذر له بالفقر، فليس ذلك عذر الكريم، فأخشى أن يظن الضيف أنك تملك المال، وتمتنع عن إكرامه؛ فيوجه إليك اللوم، ويذمك... ثم نرى الأب يفكر فى كلمات الابن، ويقف أمامها مشدوهاً حائرا لا يدرى كيف يصنع، وقد همّ بذبح ابنه، وفاءً بحق الضيف، وخروجاً من هذه الورطة. وبينما هو كذلك، إذ رأى من بعد قطيعاً من حمر الوحش يتقدمهم حمار وحشى كبير، كأنه قائد يقود جنوده فى الميدان، وكان القطيع فى ظمأ شديد يندفع نحو الماء باحثاً عنه، وكان الأعرابى فى ظمأ أشد إلى الظفر به، ثم تخالج البدوى عاطفة الرحمة، فيمهل القطيع حتى ترتوى عطاشه، ثم يرمى بسهم من كنانته؛ فيصيب هدفه، ويحقق على ما يتغياه. ويتمكن السهم من أتان سمينة، قد اكتنزت لحماً وشحماً، فسقطت على الأرض مضرجة فى دمائها وارتسمت البشرى على وجوه القوم، وما كان أعظم بهجة الأعرابى وهو يجرجر صيده، كما سر أهله بهذا الصيد. وباتت الأسرة قريرة العين، مثلجة الصدر، لأنها وفّت حق الضيافة، ونهضت بما يجب عليها نحوه، وحفظت روح ابنها، وحقنت دمه وأخذ الرجل يحيط ضيفه بالود والبشاشة، ويشعره كأنه أبٌ له وكذلك كانت زوجته فى معاملتها الطيبة وروحها الكريمة وشعورها النبيل، وإحساسها الفيّاض.

والحطيئة فى هذه الأبيات يقدم قصة شعرية رائعة بطلها رجل معدم، وأحداثها جرت فى مهمة قفر موحش، وزمانها تلك الحقبة المتداخلة من الجاهلية فى الإسلام، وأشخاصها يتمثلون فى هذا الضيف القادم، وذلك الابن البار، والأم المشاركة

لزوجها فى حيرته وفرحته، وفى البأساء والنعماء – وقد بدأ بتمهيد لقصته عرض فيها مسرح الأحداث وعرف ببطلها فى تصوير حسى ينبض بالحياة، ويتسم بالبراعة والدقة، ثم ينتقل الشاعر إلى أحداث القصة، فنراه يعرض فصولها، ويصل بها إلى عقدتها فى عرض حوارى رائع بين الأب وابنه، ثم يأتى بالحل فى تلك المفاجأة التى أدهشت الأب، وأثلجت صدره، ممثلة فى هذا القطيع الذى ظهر له دون توقع منه، وانتظار له، ثم كانت نهاية القصة بتلك الابتسامة العريضة التى ارتسمت على شفة الرجل، ثم هذا البشر الذى ارتسم وسرى فى جو الأسرة جميعها حين شاهدت الضيف، وأحست أنه راض مطمئن. ونرى الشاعر يبالغ فى تصوير القحط، والبؤس، وذلك ليمهد إلى عقدة القصة، فقد ذكر أثر الجوع فى الأطفال والحفى والعرى ليوضح شدة البؤس، ثم ساق الضيف لتكون الحيرة أعظم، ووفق الشاعر فى الخروج من مأزق القصة وحل عقدتها فى الوقت المناسب، فقطيع الحمر الوحشية لم يبد إلا بعد أن هم الرجل بذبح ابنه، فكانت نجاته مفاجأة سارة فى القصة، ويبدو أن الحطيئة قد تأثر فى قصته هذه بقصة سيدنا إسماعيل عليه السلام وحادث الفداء والتضحية. ولعلك تدرك أن الشاعر كان رائعاً وهو يصور العواطف البشرية المتباينة فنحن نرى أن الأعرابى كان جافى الطبع فى بادئ القصة، شرس الخلق، ولكن سرعان ما تبدى عليه الخلق العربى من كرم الضيافة، فقد رحب بضيفه، وهش وجهه، على الرغم مما هو فيه من ضيق وعنت، وصراع نفسى، حيث عاطفة الحنان على فلذة كبده، فهى لا تطاوعه على ذبحه، وعاطفة إكرام ضيفه الذى حلّ به ولا قرى لديه، وهو يخشى أن يتعرض للمذمة، ويصير مضغة للأفواه ويهم بذبح ابنه، ولولا أن تتداركه رحمة ربه، ومع أنه فى مسيس الحاجة إلى الصيد، نراه لا يرسل سهمه إلا بعد أن يشرب القطيع، ويرتوى كله من الماء، وبعد ذلك يقبل على صيده، وتنقشع غمته، وتنفرج كربته، وتحل أزمته، ويغمره وأسرته الحبور، ويشملهم السرور، بعد أن بيض الله وجهه أمام ضيفه، وأنقذ أسرته من جوع ظل ثلاثة أيام متتالية، ثم أنقذ ابنه من الموت وسمعته بين الناس، وحتى لا يوصف بالبخل فى بيئة

اشتهرت بالكرم. ونرى أن الشاعر كان موفقاً فى انتقاء الألفاظ، حيث وفق فى اختيار الألفاظ المعبرة لتصوير الأعرابى وجفاء طبعه، وما لحق بأطفاله من هزال صيرهم أشباحاً متحركة، كما كان بارعاً فى تصوير التسلل والخفة فى الصيد، فيقول: "فانساب نحوها".. ففى ذلك ما يمكنه من الصيد، حتى لا تفزع الحمر الوحشية وتفر بعيداً عن مجال سهامه كما برع الشاعر فى تصوير حرصه على صيده، وذلك فى قوله (على أنه منها إلى دمها أظما) لفداء ابنه وقضاء حق ضيفه، وكان أيضاً دقيق الملاحظة فى تخير التراكيب الدالة على الحالات النفسية المتنوعة التى انتابته من حاجته إلى الطعام، وإقبال الضيف عليه، وحيرته حتى تيسر له الطعام، وبات قرير العين مسرورا، كما ظهرت آثار البيئة فى اختياره الألفاظ الآتية (بيداء – شعب – بهم – خبز ملة – مسحل – نحوص – كنانة – سهم) كما انتظمت الأبيات ألواناً من الصور والأخيلة مثل الكنايات الطريفة الرائعة فى قوله "تشمر" للدلالة على التهيؤ وقوله "عاصب البطن" كناية عن الجوع وقوله "ما اغتذوا خبز ملة" كناية عن شدة الفقر، وقوله "ما عرفوا للبر مذ خلقوا طعماً"، وقوله "لن يعرف بها ساكن رسما" كناية عن أنه لا أثر للحياة فيها. كما أتى بتشبيهات رائعة مثل "ثلاثة أشباح تخالهم بهما"، حيث شبه أولاده بصغار الضأن. وهذا لون من ألوان الشعر القصصى المكتمل الجوانب المستوفى الأجزاء حيث نرى الشخوص، والحوادث، والزمان والمكان، والعقدة، والحل. وكلها من مقومات القصة الحديثة وجميعها متمثل وواضح فى القصيدة. ونحن نرى أن هذه القصة من نسج الخيال، فلايعقل مهما أوتى الإنسان من كرم، وبذل، وسخاء، وعطاء، فلا يمكن أن يقدم على ذبح ابنه، حتى لو ملك قساوة فى القلب، وجفاءً فى الطبع، وأقدم على مثل هذا العمل، فمن غير المعقول أن يأكل الإنسان لحم أخيه. وهل يستسيغ الإنسان ذلك؟، أم هل الحطيئة يعلم بعد ذبح الابن أن الضيف سيأكل من لحمه؟ وهل تعودت العرب أكل لحوم الإنسان؟!!.. إن القصة من نسج الخيال وحده، ولعل الحطيئة أراد بذلك النسيج الخيالى أن يرسم للناس كيف يكون الكرم، حتى يستدر عطفهم، وينال

فضلهم وعطاءهم، وعلى أية حال.. فإن القصة تدل دلالة واضحة على ما كان فى الخيال العربى من استعداد للفن القصصى، حيث إن القصيدة فيها مقومات القصة الفنية، وهى فريدة فى الأدب العربى، كما أنها تجسم الخلق العربى الذى يحرص العربى على أن يكون موصوفاً به، وهو "الكرم" الذى كاد يضحى بفلذة كبده فى سبيله. والكرم والشجاعة من صفات العربى. ويعد الشاعر من مدرسة "زهير بن أبى سُلمى المزنى" ورواة شعره، ومن بين الذين تتلمذوا على يديه مع ابنه "كعب بن زهير" فقد كان راوية لشعر أبيه أيضا، والحطيئة من أقوى الشعراء المخضرمين، يقول عنه صاحب الأغانى: (هو من فحول الشعراء، ومتقدميهم، وفصحائهم، متصرف فى جميع فنون الشعر من المديح، والهجاء والفخر، والنسيب، مجيد فى ذلك أجمع) كما وصفه ابن سلام الجمحى فى كتابه (طبقات فحول الشعراء فى الجاهلية والإسلام) بأنه كان متين الشعر، شرود القافية، وقال عنه أبو عبيدة: (وما تشاء أن تطعن فى شعر شاعر، إلا وجدت فيه مطعنا وما أقل ما تجد ذلك فى شعره). وللحطيئة شعر رائع فى الهجاء والفخر، والغزل وقد طبقت شهرته الآفاق فى فن الهجاء، ويعلل النقاد ذلك بأنه راجع إلى صنعة نسبه وحسبه، وقصره وقربه من الأرض، حتى إنه كان حاقداً على الناس أجمعين، فلذلك نبغ فى الهجاء. يقول ابن قتيبة الدينورى: (ولقب الحطيئة لقصره وقربه من الأرض. ويكنى أبا مُليكة، وكان راوية زهير، وهو جاهلى إسلامى، ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة الرسول – ﷺ – لأنى لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب، إلا أنى وجدته. يقول فى أول خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – حين ارتدت العرب:

أطعنا رسول الله إذ كان حاضرا ... فيا لهفتى ما بال دين أبى بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده ... فتلك وبيت الله قاسمة الظهرِ[1]

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدّينورى جـ١ صـ٢٣٨ نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت – لبنان سنة ١٩٦٤م.

ويقول صاحب الاشتقاق: (ولقب الحطيئة لقربه من الأرض وقصره، تشبيهاً بالقملة الصغيرة، يقال لها: "حَطْأة" وقال قوم: بل اشتقاق الحطيئة من قولهم: (حطأته حطئاً، إذا ضربته بيدك)[1].

(١) الاشتقاق لابن دريد تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون صـ٢٧٩ مكتبة الخانجي بالقاهرة.

حُمَيْد بن ثَوْرِ الهِلاَلِىّ (رضى الله عنه)

هو حميد بن ثور بن حزن بن عمرو بن عامر بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالى[1]. ويكنى كثيراً أبا المثنى وقد يكنى أبا الأخضر، أو أبا خالد، أو أبا لاحق[2].

وهو شاعر مخضوم عاش فى الجاهلية، وقضى الشطر الأكبر من حياته فى الإسلام. ولذا عده "ابن سلام الجمحى" وغيره من شعراء الطبقة الرابعة الإسلاميين وقرنه "بنهشل بن حرىّ". وحميد هذا أدرك زمن عمر بن الخطاب وتوفى على الأرجح فى أيام عثمان بن عفان – رضى الله عنهما، على أن من الروايات ما تقول بأنه أدرك بعض خلفاء بنى أمية ومنها ما تقول إنه أدرك زمن "عبد الملك بن مروان" خامس خلفاء الدولة الأموية. فقد روى أن حميداً وثلاثة من الشعراء، وهم: "العجير السلولىّ" و "مزاحم العقيلى" "أوس بن غلفاء الهجيمى" اجتمعوا، وقال كل منهم شعراً فى وصف "قطاة" وحكموا بينهم "ليلى الأخيلية" فحكمت "للعجير" فغضب "حميد" وهجاها، "وعبد الملك بن مروان" ولى الخلافة سنة خمس وستين من الهجرة – كما أن فى شعره من الشكوى من الهموم وضعف البصر وانحناء الظهر، ما يؤخذ منه أنه قد عمّر طويلاً حقا.

ويعد "حميد بن ثور الهلالى" من فحول الشعراء المجيدين يقول المرزبانى:

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر جـ٢ صـ٣٩.

(٢) مقدمة الديوان تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة بالهند سنة ١٣٨٤هـ سنة ١٩٦٥م الدار القومية بالقاهرة.

"كان أحد الشعراء الفصحاء، وكان كل من هاجاه غلبه". ويقول الأصمعى: (العظماء من شعراء العرب فى الإسلام أربعة: راعى الإبل النميرى، وتميم بن مقبل العجْلانى، وابن أحمر الباهلى، وحميد الهلالىّ) – وذكره ابن أبى جيثمة فيمن روى عن النبى ﷺ من الشعراء، وروى أبو فضالة النحوى قال: تقدم عمر إلى الشعراء ألا يشبب رجل بامرأة، فقال حميد بن ثور وكانت له صحبة، فذكر شعراً فيه:

آبى الله إلا أن سرحة مالك ... على كل أفتان العضاة تروق

وهل أنا إن عللّت نفسى بسرحة ... من السرح موجود علىّ طريق[1]

ودخل على بعض خلفاء بنى أمية فقال له: ما جاء بك؟ فقال:

أتاك بىّ الله الذى فوق من ترى ... وبرّ ومعروف عليك دليل

وأنشد له الزبير أيضاً:

فلا يبعد الله الشباب وقولنا ... إذا ما صبونا مرة سنتوب[2]

وقد سمع قول النبى – ﷺ – (لو لم يكن لابن آدم إلا الصّحةُ والسلامةُ، لكفاه بهما داءً قاتلاً). فأخذه وقال:

أَرَى بَصَرِى قَدْ رابنى بَعْدَ صِحّة ... وحسبُكَ داءاً أن تصحّ وَتَسْلَماَ

وَلاَ يَلْبثِ العَصْرَانِ يوماً وليلةً ... إذَا طَلَبَا أن يُدْرِكَا ما يُتَمِّمَا[3]

قد ذكر ابن قتيبة أنه لم يُقَل فى الكبر شئ أحسن منه، وقد استجاد له فى التشبيه قوله فى فرخ القطاة:

كأنَ على أشْداقِهِ نور ضوة ... إذا هو مَدّ الجِيدَ منه ليطعما

---

(١) الإصابة جـ٢ صـ٤٠.

(٢) ذاته.

(٣) مقدمة الديوان

ولم يغلب على شعره اتجاه بارز ييسر وضعه فى صف فئة معينة من الشعراء الذين عاصرهم. فلم يكن مداحاً ولا هجّاءً ولم يقصر مديحه ولا هجاءه على أشخاص بأعيانهم، ولم يشد بفكرة معينة، بل كان يقول الشعر فى كل ما يتفق له القول فيه، كالتشبيب والمديح والهجاء والشكوى من الزمان والهرم والوصف والغزل، ولعل الوصف والغزل كانا أغلب عليه من غيرهما وفى وصفه ما يدل على أنه شاعر واسع الخيال، قوى الملاحظة دقيق الوصف مُتَّسِقُه، كما يتجلى ذلك فى قصيدته الميمية الكبيرة ومثل هذه القصيدة تجعلنا نميل إلَى أن نربأ به أن يعد فى الطبقة الرابعة التى وضعه فيها ابن سلام ومن خبيث هجائه، قوله فى رجلين أرسلهما إلى محبوبة له:

وقولا إذا جاوزتما حىّ عامِر ... وجاوزتما الحيين نهداً وخثعا

نزيعان من جَرْم بن ربان إنهم ... أبوا أن يميروا فى الهزاهز محجما[1]

---

(١) ذاته (المذكور أخيراً).

* راجع إن شئت فى ترجمة الشاعر الإسلامى "حميد بن ثور الهلالى" ما يلى: الإصابة جـ٢ صـ٣٩، ٤٠.
الاستيعاب صـ ١٤١، ١٤٢.
أسد الغابة جـ٢ صـ٥٣، ٥٤.
طبقات الشعراء صـ ١٩٣.
الأغانى جـ٤ صـ٩٧ ، ٩٨.
معجم الأدباء جـ ٤ صـ ١٥٣، ١٥٥.
العينى جـ١ صـ١٧٧ ، ١٧٩.
الآلئ صـ٣٤٩ ، ٣٥٥.
الشعر والشعراء صـ٣٤٩، ٣٥٥.

مقصدا: أصيب بسهم لم يخطئه. يقال أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطئ مقاتله فهو مقصد. الهِم: بكسر الهاء وهو الشيخ الفانى، ويعنى بذلك نفسه – الكلاز: الناقة المجتمعة الخلق الشديد من كلزت الشئ وكلّزته إذا جمعته، ويروى كنازاً، والكناز الناقة المجتمعة الخلق الشديدة أيضا – جعلدا: عظيمة ضخمة واللام فيه زائدة إذ هو من التجعد، وهو التقبض والتجمع.
العليفى: رجل منسوب إلى "علاف" وهو "زبان أبو جرم" أول من عمل الرحال كأنه صغره تصغير تعظيم. مؤكدا: الموثق شديد الأثر. نسعيه: مثنى نسع وهو سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال – والخِدَبّ: الضخم يريد به سنام الناقة. وملبدا: عليه لبدة من الوبر – السراب: ما يجرى على وجه الأرض كأنه ماء، ويكون فى نصف النهار. اضطراده: شدة خفقه ولمعانه. نجد الماء: سال. والمراد به هنا العرق الذى يسيل من ذفرى البعير، فيقطر ثم يصفرّ – وتورده: المقصود به تلونه شبه لونه بتلون السيد. السيد: الذئب. المرصد: الطريق الذى يرصد الذئب فيه فريسته.

فهو قد طلب منهما أن ينتسبا إلى جرم لأن العرب تأمنها لذلها ولا تخاف منها غارة ولا بأساً وهذا أخبث الهجاء حقا على أنه كغيره من الشعراء لم يسلم من النقاد، فقد أخذوا عليه قوله:

لّمــا تخايلــت الحمــول حــسبتها دومــاً بأيلــة ناعمــاً مكمــوما

وذلك لأن الدوم لا يُكَمُ بكمامة، وإنما الذى يكُم هو التحل، ويروى أنه لما أسلم أتى النبى – ﷺ – وقال:

أصْبَحَ قَلْبِى مـن سُلَيْمَى مُقْـصَدَاً إنْ خَطَـــأ مِـــنْها وإنْ تَعَمُّـــدَا
فَحَمّـــلِ الْهِـــمَّ كِـــلازاً جُلْعَـــدَا تَـــرَى العُلَيْفِـــىّ علـــيها مُـــؤْكَدَاً
وَبِـــيْن نِـــسَّعيْه خِـــدبا مُلْـــبدَا إذا الـــسَّراب بـــالفَلاة اصَّـــرَدَا
وَنَجَـــد المـــاء الـــذى تَـــوَرَّدَا تَـــوَرُّدَ الـــسِّيد أرادَ المرْصَـــدَا
حتـــى أَرَانـــا ربَّـــنا مُحمَّـــدَا يَـــتْلو مـــن الله كِـــتَاباً مُرْشِـــداً
فلـــم نُكـــذِّبْ وخَـــررْنَا سُـــجَّدا نُعْطـــىِ الـــزكاة ونُقـــيم المـــسْجِداً

الدراسة والتحليل:

يقول الشاعر "حميد بن ثور الهلالى" حينما أسلم وأتى النبى ﷺ: لقد أصبح قلبى من سليمى خالياً بعد أن رمته بسهم فلم تخطئ مقاتله، فهو مصاب بسهام محبوبته سواء أكان ذلك منها عن طريق العمد أو الخطأ، فحمّلت الشيخ الفانى الذى تقدمت به السن وأسلمته الشيخوخة إلى عصا عجراء، حملته من الهموم ما دفعه إلى الهجرة، ومغادرة الديار يركب ناقة ضخمة شديدة الخلق مستوية ذات سنام عظيم على رحل صنعه العليفىّ، وشدّ رحاله على هذه الناقة الضخمة السنام عليها لبدة من الوبر الكثيف فى صحراء شاسعة، لا يرى فيها إلا السراب الذى يتلون كالذئب الذى يأتى من كل وجه لؤماً وخيانة ليصطاد فريسته ومع ضخامة الناقة، وقوتها، ونشاطها وسرعتها، فإنها تتصبب عرقاً يسيل من ذفرى ناقته، فيقطر، ثم يصفر، ثم

يتلون تلون الذئب، والشاعر هنا يشبه العرق الذى يسيل من ذفرىّ ناقته فيقطر ثم يصفرّ، ثم يتلون شبه ذلك بتلون الذئب الذى يهاجم فريسته من كل وجه خبثاً ولؤماً وخداعاً لتقع فى حبائله، وتصيدها شراكه، وهذا السراب شديد الخفقان واللمعان وهو يتورد تورد الذئب الذى يرصد فريسته ليصيدها. والعليفىّ أراد بالتصغير هنا "التعظيم". وجلعدا: أى عظيماً ضخماً واللام فيه زائدة للضرورة الشعرية. ويتحمل الشاعر هذه الصعاب ويقطع الوهاد والنجاد، متحملاً وعثاء السفر ومشقة الطريق، وهو فى سن الشيخوخة على ناقة ضخمة شديدة قوية تامة الخلق. كل ذلك يتحمله "حميد بن ثور الهلالى" رضى الله عنه، حتى رأى محمداً – ﷺ – يتلو من الله كتاباً مرشداً وهادياً ومعلماً، وهو القرآن الكريم، فآمن – رضى الله عنه – وأسلم، وخرّ ساجداً لله، وأناب وصدق برسول الله – ﷺ – وآمن بكل ما جاء به عليه السلام من زكاة وصلاة، وكل ما جاء به الوحى، وخص الزكاة، وإقامة الصلاة لعل ذلك من قبيل الاهتمام بالصلاة والزكاة وأنهما من أركان الإسلام الخمسة التى بنى عليها الإسلام، ولأهمية هذين الركنين، وخاصة الصلاة، وقوله "ونقيم المسجد" كناية عن أنهم يؤدون فريضة الصلاة، وهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال، حيث إن المسجد هو مكان الصلاة. ولعل الرواية تكون هكذا.

"فلم نكذب وخررنا سجدا... نعطى الزكاة ونؤم المسجدا" والأبيات تدل بما لا يدع مجالاً لريبة أن حميد بن ثور الهلالى – رضى الله عنه – هرع إلى رسول الله – عليه الصلاة والسلام – وأعلن إسلامه كما أن أبياته تدل على تمسكه بتعاليم الإسلام الحنيف.

النثر الإسلامي

"نصوص من القرآن الكريم"

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[1].

اللغويات

"يا جبال أوبى معه" أى سبحى[2]. وأصله: التأويب فى السير، وهو أن تسير النهار كله وتنزل ليلاً. قال ابن مُقبل:

لحقنا بحيٍّ أوَّبوا السيَّر بعدما ... دفعنا شعاع الشمس والطرف يجنح[3]

وقال آخر:

---

(١) سورة سبأ الآية ١٠ – ١٤.

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٨٤.والطبرى ص ٥٤ واللسان جـ١ صـ٢١٢.

(٣) القرطبى ص ٢٦٥ والبحر المحيط ص ٢٦٣.

يـــومان يـــوم مقامـــات وأنديـــة ويـوم سـيرا لى الأعـداء تأويـب[1]

وقيل "أوبى معه" تصرفى معه على ما يتصرف فيه، فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير فكأنها فعلت ما فصل وقيل:

"أوبى معه" أى رجعى معه التسبيح أو السير، فأمر الجبال كأمر الواحدة المؤنثة لأن جمع ما لا يعقل يجوز فيه ذلك. ومنه "يا خيل الله اركبى" وقد جاء ذلك فى جمع ما يعقل من المؤنث. قال الشاعر:

تـــركنا الخـــيل والـــنعم المـــندى وقلـــنا للنـــساء بهـــا أقيمـــى

لكن هذا قيل[2].

والسابغات: الدروع الواسعة[3]، وقيل السابغات: الدروع، وأصله: الوصف بالسبوغ وهو التمام والكمال، وغلب الدروع، فصار كالأبطح.

وقال الشاعر:

علـيها أسـود ضـاريات لبوسـهم سـوابغ بـيض لا يخـرّقها النـبل

"وقدر فى السرد" أى فى التسبيح، أى لا تجعل المسامير دقاقاً فتغلق ولا غلاظاً فتكسر الحلق.. ومنه قيل لصانع "حلق الدروع.. سَرّاد وزرّاد[4]. وقيل السرد: اتباع الشئ بالشئ من جنسه. وقال الشماخ.

فظـن تـباعاً خيلـنا فـى بـيوتكم كمـا تابعـت سرْد الغيان الخوارز[5]

وفى القرطبى: فظلت تباعاً خيلنا فى بيوتكم[6].

---

(١) البحر المحيط ٢٦٣.
(٢) ذاته ص ٢٦٣.
(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٥٣.
(٤) البحر المحيط ص ٢٥٥.
(٥) القرطبى ص ٢٦٧ والبحر المحيط ص ٢٦٤ واللسان جـ ٤ ص ١٩٥.
(٦) ديوان الشماخ ص ٥٠.

ويروى البيت برواية أخرى وهى الصحيحة لأنها وردت فى ديوانه:

شككن بأحشاء الذنابى على هدى   كما تابعت سرد العنان الخوارز

ويقال للدرع مرودة لأنه توبع فيها الحلق بالحلق. قال الشاعر:

وعليهما سرودتان قضاهما   داود أوضع السوابغ تُبَّعُ

وسرد الكلام إذا تابعه مستعجلاً فيه...[1].

محاريب: مساجد – الجفان: جمع جفنة.

كالجواب: الحياض العظام ومفردها جابية لأنه يجبئ فيها الماء أى يجمع.

قال الأعشى

تروح على آل المحلّق جفنةٌ   كجابية الشيَّخ العِراقىَّ تَفْهَقُ[2]

ويروى البيت برواية أخرى:

نفى الذم عن آل المحلّقِ جفنه   كجابية الشيخ العراقى تفهق[3]

وقال الشاعر

بجفان تعترى نادينا   من سديف حين قد هاج الصبر

كالجواب لا تفى مترعة   لقرى الأضياف أو للمحتظر

"وقدور راسيات" أى ثوابت فى أماكنها ولا تنقل لعظمها وكبر حجمها. يقال رسا الشئ إذا ثبت، ويرسو: يثبت – وقيل الجبال: رواسى.

قال الأفوه الأودى:

---

(١) البحر المحيط ص ٢٥٥.

(٢) الديوان ص ١٣١ تحقيق فوزى المحامى بيروت ويروى "كخابية" وفى اللسان جـ٨ من ١٤٠.

(٣) البحر المحيط من ٢٥٥ جـ٧ والعمدة جـ١ ص ٤٩ لابن رشيق القيروانى.

وقـــــدور كالـــــربا راســـــيات وجفـــــان كالجـــــواب مترعـــــه

المنسأة: العصا- مفعله، من نسأت الدابة أى سقتها، ونسأت الشئ أى أخرته وطردته، ويقال: منساءه بالمد والهمز على وزن مفعالة.

"لقد آتينا" جواب قسم محذوف والتقدير: والله لقد آتينا، وإسناد "آتينا" إلى "نا" لتعظيم الإيتاء. والتنكير فى "فضلا" لتعظيم والتكثير. "يا جبال" على حقيقته لأنه من الله. والفرق بين ما عليه قوله "ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أو بى معه والطير وألنّا له الحديد وبين قولنا "ولقد آتينا داود منّا فضلاً" تأويب الجبال معه والطير هو ما فى النظم القرآنى من الفخامة الدالة على عزة الربوبية، وكبرياء الألوهية، حيث جعلت الجبال منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا أشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته[1].

"وألنا له الحديد" تقديم "له" للاختصاص أى ألنا له، لا لسواه، فقد كان لصرفه بيده كيف يشاء[2] "أن اعمل سابغات" فيه مجاز محذوف وهو عامل "أن" المفسرة أى أمرناه أن اعمل سابغات، وما جاز بحذف "الموصوف" أى اعمل دروعاً سابغات، "ولسليمان الريح" فيه مجاز بحذف متعلق "اللام" أى وسخرنا الريح فهو فى محل نصب، أى وسخرنا له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه وفى هذا رد على من يزعمون تسخير الجن، لأنه لا يكون إلا من الله تعالى "نذقه من عذاب السعير" استعارة مكنية تبعية فى "نذقة" أو مكنية فى "عذاب". وجفان كالجواب، فيه تشبيه، شبه الصحان بالحياض الكبار فى الضخامة والاتساع. "اعملوا آل داود شكراً" مفعول لفاعل محذوف تقديره قائلين "اعملوا" فهو مجاز

---

(١) راجع الكشاف للزمخشرى جـ٣ ص ٣٨١.

(٢) ذاته.

بالحذف[1]. "شكراً" مفعول لأجله إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف، وقيل إن المعنى "اشكروا آل داود شكراً" فعبر عن "اشكروا" باعملوا للمشاكلة، "ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته" أسلوب قصر طريقه النقى والإثبات الدال على قوة تأكيد انتفاء علم الغيب عن الجن، وهو قصر صفة على موصوف. فى إسناد "دلهم" إلى الدابة: مجاز عقلى: يشير إلى ضعف علم الجن، وحقارة شأنهم.

مثل: ميضأة وميضاءة

قال الشاعر:

إذا دببت على المنساة من كِبَرٍ ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل[2]

وقال آخر:

ضربنا بمسناءه وجهه ... فصار بذاك مهينا ذليلاً

وقال آخر:

وعنس كألواح الإران نسأتها ... إذا قيل للمشبوبتين: هما هما[3]

فلما خرّ: سقط تبينت الجن: يعنى ظهر أمرها وعلمت وتحقق عجزها من أنها لا تعلم الغيب، ولو أنها كانت تعلمه ما خفى عليها موت سيدنا سليمان عليه السلام، فلما خرّ سليمان – عليه السلام – زال الشك فى أمرها وكأنها أقرت بالعجز، وقد ظهر أنه خفى عليها بدوامها فى الخدمة وهو ميت قال الأعشى: يذكر سليمان النبى – ﷺ.

وسخرَّ من جنَ الملائك تِسعةً ... قياما لديه يعملون بلا أجر[4]

---

(١) راجع الشهاب على البيضاوى جـ٧ ص ١٩٤.

(٢) ويروى (من هرم) البحر ص ٢٥٥.

(٣) تفسير غريب القرآن ص ٣٥٥. واللسان جـ ١ ١٦٤ والقرطبى ص ٢٨٠.

(٤) لسان العرب لابن منظور جـ١٦ ص ٢٥١ وتأويل مختلف الحديث ص ٣٥٢ وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢١.

والجن من الجتنان وهو الاستتار. يقال: للدرع: جنَّه لأنها سترت، ويقال أجنه الليل: أى جعله من سواده فى جنة، وجن عليه الليل.. وإنما سموا جنا لاستتارهم عن أبصار الأنس.

﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أى من الملائكة فسماهم جنا لا جتنانهم واستتارهم عن الأبصار.

وقال الأعشى يذكر سليمان النبى – ﷺ.

وسخرَّ من جن الملائك.... إلخ.

المعنى الإجمالى

تحوى هذه الآيات صوراً من تسخير الله لمن يشاء من عباده قوى وخلقاً، لا تسخر عادة للبشر، ولكن قدرة الله ومشيئته لا يقيدهما مألوف للبشر، وتتكشف من خلال هذه الصور وتلك حقائق عن الشياطين الذين كان يعبدهم بعض المشركين، أو يطلبون عندهم علم الغيب، وهم عن الغيب محجوبون: وعن أسباب الغواية التى يتسلط بها الشيطان على الإنسان وماله عليه سلطان إلا ما يعطيه من نفسه باختياره، وعن تدبير الله فى كشف ما هو مكنون من عمل الناس، وبروزه فى صورة واقعة لينالوا عليه الجزاء فى الآخرة[1]. وداود: عبد منيب ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ . والسياق يعقب بقصته بعد تلك الإشارة، ويقدم لها بذكر ما آتاه الله له من الفضل ثم يبين هذا الفضل بقوله سبحانه وتعالى ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ ﴾ وتذكر الروايات أن داود عليه السلام أوتى صوتاً جميلاً خارقاً فى الجمال وكان يرتل به مزاميره: وهى تسابيح دينية ورد منها فى كتاب (العهد القديم) والله أعلم بصحته. وفى الصحيح أن رسول الله – ﷺ – سمع صوت أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه.. يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ (لقد

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب جـ ٥ ص ٨٩٧.

أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود) والآية تصورّ من فضل الله على داود عليه السلام أنه قد بلغ من الشفافيةَ. والتجرد فى تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات، فاتصلت حقيقتها بحقيقته فى تسبيح بارئها وبارئه، ورجعت معه الجبال والطير، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة تتراوح معهما الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع بين كائن من خلق الله وكائن وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة فإذا هى تتجاوب فى تسبيحها للخالق، وتتلاقى فى نغمة واحدة وهى درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل الله يزيح عنه الكيان المادى ويرده إلى كينونته اللدنية يلتقى فيها بهذا الوجود وحين انطلق صوت داود عليه السلام يرتل مزاميره ويمجد خالقه رجعت معه الجبال والطير، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية فى كيانه الواحد، المتجهة، إلى بارئه الواحد، وإنها للحظات عجيبة لا يتذوقها إلا من عنده بها خبر، ومن جرب ولو لحظة من حياته[1].

ويقول صاحب الدر اللقيط من البحر المحيط: ومعنى تسبيح الجبال "أن الله يخلق تسبيحاً كما خلق الكلام فى الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه السلام. وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين. وكانت الجبال تساعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها[2].

ولقد ألان الله له الحديد، حتى كان فى يده كالشمع، وهو فى قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به، فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله. وكان داود عليه السلام قد طلب من الله أن يغنيه عن الأكل من مال بيت المال وخزانة الدولة؛ فألان الله له الحديد، وعلمه صنعة لبوس ليأكل من كسب يده، ولقد اختار الله عز وجل له ذلك لما فيه من وقاية وحفظ الأرواح التى خلقها بقدرته

---

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب جـ ٥ ص ٨٩٧.

(٢) الدر اللقيط من البحر المحيط للقيسى هامش البحر المحيط.

وأخرجها إلى حيز الوجود بإرادته وقوله "وقدر فى السرد" إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب، وإنما هو اكتساب، والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الأيام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل، ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب، بل حصل به القوت فحسب، ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحا) أى لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح، فأكثروا منه ثم أكثروا طلب الفعل الصالح. يقول الحق تبارك وتعالى "وإنى بما تعملون بصير"[1].

وقيل إن المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود، أنها كانت تسبح كما يسبح كل شئ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾.

وكان – عليه الصلاة والسلام – يفقه تسبيحها فيسبح. قال ابن عباس – رضى الله عنهما –: ألان الله لداود الحديد حتى صار كالشمع. وروى أن داود عليه السلام كان يتنكر فيسأل الناس عن حاله، فعرض له ملك فى صورة إنسان، فسأله فقال: نعم العبد لولا خلة فيه. فقال: وما هى؟ قال: يرتزق من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله؛ فدعا الله تعالى أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، فعلمه صنعة الدروع، وآلان له الحديد؛ فأثرى، وكان ينفق ثلث المال لصالح المسلمين[2]، كما وجه القرآن الكريم إلى كيفية صناعتها، بحيث لا يصنعها صغيرة فتضعف، فلا يقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرة فينال لا بسها من خلالها ويصاب نتيجة اتساعها، وذلك أمر إلهى، وتوجيه ربانى. ولقد أعطى الله لسليمان عليه السلام الرياح بدلاً من الخيل تجرى بأمره، والدليل على ذلك أنهم لم يقرأوا لا على التوحيد يعنى مفرده فلم يقرأ أحد (الرياح)[3] كما أسال له عين القطر وأذاب له معدن النحاس وجعله سائلا سيول الماء وتلك معجزة لنبى الله داود عليه السلام يستعملها فيما يريد. وإن هذا الأمر كان خرقاً وليس من مألوف البشر فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يصبح قابلا للطرق، بل كان معجزة، حيث ألان الله

---

(١) التفسير الكبيرة لفخر الدين الرازى المجلد السابع ص ٨.

(٢) البحر المحيط ص ٢٦١ بتصرف.

(٣) التفسير الكبير لفخر الدين الرازى – المجلد السابع ص ٩ بتصرف.

سبحانه وتعالى الحديد دون سابق مثال، وبطريقة غير الطريقة التى اعتادها البشر فى إلانة الحديد وذوبانه. وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: أجريت له ثلاثة أيام بلياليهن، وكانت بأرض اليمن قال مجاهد:

فيما روى لأحد من قبله[1]. فذاب الحديد فأمر ربه سبحانه وتعالى. وقال "بإذن ربه" بلفظ الرب وقال ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ ولم يقل عن أمر ربه وذلك لأن "الرب" لفظ ينبى عن الرحمة فعندها كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم قال ﴿ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف[2] ومعنى ﴿ وَمَن يَزِغْ ﴾ أى ومن يعدل منهم عن أمرنا الذى أمرناه به من طاعة سليمان عليه السلام نذقه من عذاب السعير. وبذلك يكون المولى تبارك وتعالى أوعدهم بما فى الآخرة من العذاب، حيث إن السعير لا يكون إلا فى الآخرة. ثم قال تعالى ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾. قال مجاهد: المحاريب: هى المساجد والتماثيل: هى الصور، والجفان: جمع جفنة – والجواب وهى الحياض العظام.. والراسيات هى الثابتات على الاثافى، فلا تنقل ولا تحمل لعظمها وقدمت المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون فى الأبنية. وقدم الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ، والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل لما بين الأبنية الملكة أراد بيان عظمة السماط الذى يمد فى تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيها، والقدور لا يكون فيها، فذكر القدور للمناسبة، وذكرنى حق داود عليه السلام من المحاريب فى التماثيل، لأنه كان ملكا وابن ملك قد وطد له أبوه الملك ومهده له فكانت حاله حالة سلم إذا لم يكن أحد يقدر على محاربته، وقال عقب: "أن اعمل سابغات" واعملوا صالحاً وعقب ما يعلمه الجن ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ فعقب على كل جملة بما يناسبها[3].

---

(١) البحر المحيط جـ٧ ص ٢٦١.

(٢) التفسير الكبير للرازى المجلد السابع ص ١٠.

(٣) البحر المحيط جـ٧ ص ٢٦١ بتصرف.

وروى أن مصلى داود عليه السلام لم يخل قط من قائم يصلى ليلا أو نهاراً والشكر يكون بقدر البشرية، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله، فلا قدرة لأحد عليه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها[1] والشكر التام الذى يناسب جلال الله ونعمه لا يكون إلا من رضى الله عنهم ثم قال فى أخر الآيات ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[2]. وقد روى أنه كان متكئا على عصاه حين وافاه أجله، والجن تروح وتجئ مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد، فلم تدرك أنه مات حتى جاءت دابة الأرض. قيل إنها الأرض التى تتغذى بالأخشاب وهى تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة فى الأماكن التى تعيش فيها، فلما نخرت عصا سليمان عليه السلام لم تحمله فخرّ على الأرض، وحينئذ علمت الجن موته، وعندئذ ﴿ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[3] فهؤلاء الجن الذين يعبدهم بعض الناس، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلبون عندهم أسرار الغيب البعيد، والكل زائل فانٍ، حيث إن نبى الله سليمان عليه السلام الذى وهبه الله عظمة، وسخر له الرياح، بيد أنه لم ينج من الموت، وإنه قضى عليه الموت تنبيها للخلق إلى أن الموت لابد منه، ولو نجا منه أحد، لكان سليمان أولى بالنجاة منه. وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4]. وقال تعالى:﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[6] وقال

(١) التفسير الكبير المجلد السابع ص ١١ بتصرف.
(٢) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب جـ٥ ص ٥٩ بتصرف.
(٣) التفسير الكبير – المجلد السابع ص ١١.
(٤) سورة القصص آية رقم ٨٨.
(٥) سورة الرحمن آية رقم ٢٦.
(٦) سورة العنكبوت آية رقم ٥٧.

تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[2].

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ صدق الله العظيم.

اللغويات

"سبأ" فى سبأ قراءتان. بالفتح على أنه اسم بقعة، وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة، وهو الأظهر لأن الله جعل الآية لسبأ. والفاهم هو العاقل وليس المكان كما أنه لا يحتاج إلى إضمار الأهل على حد قول الله تعالى: (واسأل القرية) أى واسأل أهل القرية قرئ: لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان. وقال ابن عطية "جنتان" مبتدأ وخبره "عن يمين وشمال" وذلك مردود لأنه فكرة ولا مسوغ للابتداء بها إلا أن اعتقد أن "ثم" صفة محذوفة – أى جنتان لهم أو عظيمتان عن يمين وشمال، وعلى ذلك يكون الكلام مغلقاً مما قبله. وجنتان جماعتان من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها. "العرم" يحتمل أن يكون صفة "للسيل" من إضافة الموصوف محذوف تقديره سيل المطر الشديد الذى كان عنه السيل، أوسيل الجرز

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨٥.

(٢) سورة السجدة آية رقم ١١.

العرم، وقيل إن العرم اسم الجرز نفسه وأضيف السيل إليه لكونه كان السبب فى خراب السد الذى حمله السيل والإضافة تكون بأوى ملابسه[١].

معانى الألفاظ

العرم: المثناة[٢] واحدها عَرِمه. قال الشاعر:

مــن ســبأ الحاضــرين مــأرب إذ   يبــنون مــن دون ســيله العــرما

الأكل الثمر – الخمط: شجر العصاة وهى كل شجرة ذات شوك وقال قتادة: الخمط: الزراك، أكله. والأثل شبيه بالطرفاء، إلا أنه أعظم منه. "وهل نجازى إلا الكفور" قال طاووس: يجازى ولا يغفر له، والمؤمن لا يناقش الحساب. "وقدرنا فيها السير" أى جعلنا ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً. "فجعلناهم أحاديث" أى عظة ومعتبراً.

"ومزقناهم كل ممزق" أى فرقناهم فى كل وجهة ولذلك قالت العرب للقوم إذا أخذوا فى وجوه مختلفة "تفرقوا أيدى سبأ" وأيدى سبأ" وأيدى بمعنى مذاهب وطرق.

"ولقد صَدَّق عليهم إبليس ظنه" وذلك أنه قال: لأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله.. فلما اتبعوه وأطاعوه صدق ما ظنه أى فيهم[٣].

الألوان البلاغية

"جنتان عن يمين" فصل هذه عما قبلها لكمال الاتصال لأنها بدل من "آية"

---

(١) التفسير لفخر الدين الرازى المجلد السابع ص ١١ وما بعدها والبحر المحيط جـ ٧ ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٢) هى الجرأ وحفيرة كثرد الماء للسير وقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: العرم فى لغة جمع عرمة وهى كل ما بنى او سلم ليمسك الماء وقال ابن جبر: العرم: المتناه بلسان الحبشة.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٥٥ وما بعدها.

والتنكير فى "آية" للتعظيم، أى آية عظيمة دالة على وجود الصانع المختار "عن يمين وشمال" محسن معنوى، وهو "الطباق" الموحى بالشمول والإحاطة "كلوا من رزق ربكم": فصل عما قبله: لشبه كمال الاتصال: لأنه استناد على تقدير قول حقيقى أو موحى أو حكاية لما قال لهم نبيهم "فأعرضوا فأرسلنا" العطف بالفاء أو لا يوحى تسبب عن هذه النعم المغدقة من الرب عليهم إعراض سريع من آل سبأ. وفى ذلك تصوير لبشاعة ما قابلوا به نعم الله عليهم وكذلك عطف "فأرسلنا" بالفاء يوحى بسرعة عقابهم. وأنه متسبب عن إعراضهم وإسناد "أرسل" إلى "نا" يوحى بقوة الإرسال وشدة فظاعة آثاره. وذلك يتناسب مع وصف سيل العرم "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" فى تسمية البدل جنتين مشاكلة: للتهكم لأن الجنة لا تكون إلا من أعطى ثمراً شهياً[1]. "ذلك جزيناهم بما كفروا" تقديم المفعول ذلك للتعظيم والاختصاص[2] "وهل نجازى إلا الكفور": الاستفهام متضمن معنى النفى، ولذلك كان الأسلوب أسلوب قصر طريقه النفى والإثبات، وهى من قصر الفعل المستند إلى الفاعل على المفعول "وجعلنا بينهم وبين القرى" العطف هنا عطف قصة على قصة وهو من بدائع العطف فى القرآن الكريم[3] "وجعلناهم أحاديث" كناية عن أنهم صاروا إلى حال ضرب به المثل، ويتحدث الناس بهم تعجباً وما كان له عليهم من سلطان "إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ" إذا فسرنا "نعلم" بمعنى "نميِّز" كان فيه مجاز مرسل علاقته "السببية" لأن العلم صفة توجب تميزاً[4] "من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ" فى نظم الصلتين نكتة بلاغية حيث جعل صلة الموصول الأول "جملة فعلية" "يؤمن بالآخرة" والموصول الثانى "جملة اسمية" هى: "هو منها فى شك".

---

(١) راجع الشهاب على البيضاوى، والبيضاوى جـ٧ ص١٩٨، والكشاف للزمخشرى جـ٣ ص٢٨٥.

(٢) انظر الشهاب على البيضاوى جـ٧ ص ١٩٨.

(٣) الشهاب على البيضاوى جـ٧ ص ١٩٨.

(٤) ذاته جـ٧ ص ٢٠٠ دار صادر بيروت.

المعنى الإجمالى

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبأ موعظة لقريش وتحذيراً وتنبيهاً على ما جرى لمن كفر بأنعم الله تعالى. والقصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق، وهم كانوا على عهد الملكة التى جاء نبأها فى سورة النمل مع سليمان فى ملك عظيم، وفى خير عميم ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان "إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله" وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين "وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين" فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله، وتحكى ما حل بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم، وخير عميم وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رغد ونعيم ما طلب إليهم من الشكر. "لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا لله بلده طيبة ورب غفور" وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن وكانوا فى أرض خصبة لا تزال منها بقية إلى اليوم، وقد ارتقوا فى سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة من البحر فى الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادى بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان لهم من هذا موردا مائيا عظيما، وقد عرف باسم "سد مأرب" وهذه الجفان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكرنا وتذكر من جاء بعدنا بالمنعم الوهاب والرزاق الكريم التواب. وقد أمروا بالاستمتاع برزق الله سبحانه وتعالى، فقال تعالى آمراً إياهم بالتمتع: "كلوا من رزق ربكم واشكروا له" ثم ذكَّروا بالنعمة ألا وهى نعمة البلد الطيب، ثم نعمة الغفران. قال تعالى "بلدة طيبة ورب غفور" سماحة فى الأرض بالنعمة والرخاء وسماحة فى السماء بالعفو والغفران، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكر؟ ولكنهم لم يذكروا ولم يشكروا، فقال تعالى:" فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم

جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل". إنهم أعرضوا عن شكر الله والعمل الصالح فسلبهم الله هذه النعم وحرمهم من ذلك الرخاء وأرسل عليهم السيل الجارف الذى يحمل الحجارة معه فى طريقه، فحطم السد وسالت المياه فهَّدمت البيوت، واقتلعت الأشجار ومزقت السكان الآمنين وتدلت تلك الجفان الفيح إلى الصحراء، تنتشر فيها الأشجار البرية الخشنة وبدلا من الفواكه الجميلة الكثيرة، أعطوا خمطا وأثلا وسدراً قليلاً. "وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل" وكأن سائلا يسأل لم حدث ذلك؟ فنقول إن الإجابة على هذا السؤال تَكَفَّل بها القرآن الكريم، حيث يقول المولى تبارك وتعالى "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور" فالكفر هنا كفر النعمة...فكل نعمة أنعم الله بها على العبد فلم يشكرها سلبها الله منه، لأنه يعد كافراً بالنعمة، إذ لم يقدم الشكر للمنعم. ويقول الله تعالى: "فاشكروا لى ولا تكفرون".

وقال- صلى الله عليه وسلم:- "التحدث بالنعم شكر وتركها كفر ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله" وقال تعالى: "وأما بنعمة ربك فحدث". وكل هذه أدلة تثبت أن المراد بالكفر فى الآية الكريمة هو كفر النعمة، وأن الشاكرين ينزلهم الله نعمه – قال تعالى: "لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد" وكانوا إلى هذا الوقت لا يزالون فى قراهم وبيوتهم. ضيق الله عليهم فى الرزق، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة وبأساء، ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم وكان العمران لا يزال متصلا بينهم وبين القرى المباركة: وهى مكة المكرمة فى الجزيرة العربية أو بيت المقدس فى الشام فقد كانت اليمن لا تزال عامرة فى شمال بلاد "سبأ" ومتصلة بالقرى المباركة والطريق بينهما عامر ومطروق ومأمون " وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين". وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام فكان السفر فى هذه البلاد محدود المسافات، وهم بذلك فى مأمن من قطاع الطرق واللصوص الذين يقطعون الطريق على المسافرين ويحتجزون القوافل وينهبون ما فيها من تجارة ومال،

كما أنهم ليسوا بحاجة لحمل زادهم والماء وما يتطلبه السفر. كما جنبهم عناء الطريق ومشقة السفر الطويل ويسيرون ليلاً ونهاراً وهم آمنون على أرواحهم وأموالهم وتجارتهم ولكن الشقوة غلبت على أهل سبأ فلم يفيدوا من النذير الأول فطلبوا التعب بدلاً من الراحة، والخوف بدلاً من الأمن والشقاء بدلا من النعيم، حيث إنهم قالوا "ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا".

وكان ذلك المطلب ظلما منهم لأنفسهم (وظلموا أنفسهم) وسرعان ما استجاب الله لدعوتهم وحقق أمانيهم فى النَّصَبِ والتعب والمشقة، ففرقهم فى كل مكان وجعلهم أحاديث الناس يتحدث الناس بسيرتهم "فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق" فمزقوا وشردوا حتى ضرب بهم المثل، فقيل "تفرقوا أيدى سبأ" وهو مثل يضرب للجماعة المتفرقة فى الرأى وغير ذلك، بل كانوا عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور" إنه يذكر الصبر إلى جوار الشكر. الصبر فى البأساء والشكر فى النعماء وفى قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء، وهناك فهمٌ آخر يورده الإمام الشهيد سيد قطب، فيقول قد يكون المقصود بقوله (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة) أى قرى غالبة ذات سلطان بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء حياتهم صحراوية جافة وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى ومواضع الماء فلم يصبروا على الابتلاء وقالوا "ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا" أى قلل من أسفارنا فقد تعبنا: فبطروا النعمة ولم يصبروا للمحنة ففعل الله بهم ما فعل من تمزيق وتفريق وأصبحوا أثراً بعد حين وأحاديث تروى وقصصا تحكى وبذلك يجئ التعقيب مناسباً لقلة شكرهم على النعمة وقلة صبرهم على المحنة، وهو قوله تعالى: " إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور" وفى ختام قصة سبأ ينطلق النص من إطار القصة المحدود إلى إطار التدبير الإلهى العام والتقدير المحكم الشامل والسنة الإلهية العامة ويكشف عن الحكمة من القصة كلها. ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوا إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك، وربك على كل شئ حفيظ، فلقد سلك قوم سبأ هذا المسلك الذى أوصلهم إلى هذه النهاية السيئة،

من الحتم أن يحل بهم ذلك حيث إنهم اتبعوا إبليس فى وساوسه وتزيين القبيح لهم حسناً فأوردهم موارد الردى وهوى بهم إلى مزالق الشر وبذلك صَدَّقَ عليهم ظنه فى قدرته على إغوائهم وإضلالهم. فأضلهم وأغواهم، إلا فريقاً من المؤمنين "فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) وإن قصة سبأ لمتصلة بقصة كل قوم وإنها تصلح تقريرا لحال البشر أجمعين حيث إنها قصة الغواية والهداية، فالهداية طريقها واضح ومعروف وسبلها لا تخفى على أحد، كما أن الغواية سبيلها معروف أيضا ونتائجها السيئة يعرفها جميع البشر كما يعرفون أبناءهم. "ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء".

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ (١).

معانى الألفاظ

"المقربون فى جنات النعيم" أى الذين قّربت درجاتهم فى الجنة من العرش وأعليت مراتبهم، وقرئ فى جنة النعيم(٢). " ثلة" ثلة: يعنى: فرقة(٣).، والثلة من ثللت الشئ أى قطعته(٤).، والثلة: الأمة الكثير من الناس(٥).، قال الشاعر:

---

(١) سورة الواقعة، من الآية ١١ إلى ٢٦.

(٢) راجع الكشاف للزمشخرى جـ٢ ص ١١٣.

(٣) راجع العمدة فى غريب القرآن للقيسى صـ٢٩٦.

(٤) راجع القرطبى ج١٧ صـ ٢٠١.

(٥) راجع صحيح البخارى للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن مرزية البخارى جـ ٦ صـ ٥٦ وما بعدها – دار الفكر.

وجـاءت إلـيهم – ثلـة – خندقـية بجـيش كتـيار مـن الـسيل مـزبد

فالثلة: هى الأمة من الناس الكثيرة من الثيل وهو الكسر. كما أن الأمة من " الأم وهو الشج ما كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم، والمعنى على ذلك أن التابعين كثير من الأولين وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم. وقليل من الآخرين وهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام. والبيت شاهد لمعنى الكثرة، فإن كانت الباء تجريدية وهو الظاهر فى النص وإلا فالاستدلال عليها من أن المقام مقام مبالغة ومدح، وخندقية: أى منسوبة إلى قبيلة (خندق) قال:

"أمى خندق وإلياس أبى"

والتيار – الموت – ومزبد: أى كثير الزبد، والمراد كثرة الجيش وتموجهم كتموج السيل المزبد[1]. موضونة: يعنى منسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلق الدرع[2]. قال الأعشى:

ومـــن نـــسج داود موضـــونة تـسير مـع الحـى عـيراً فعـيراً[3]

وقوله أيضاً:

وبيـــضاء كالنهـــى موضـــونة لهـا قـونس فـوق جـيب الـبدن

ومنه (وضين الناقة) أى خزامها، لأنه (موضون) أى مفتول – قال الراجز:

إلـــيك تعـــدو قلقـــاً وضـــينها معترضـــاً فـــى بطـــنها جنيـــنها

مخـالفاً دين النصـارى دينـها

---

(١) انظر تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات، تأليف الأستاذ: محيى الدين أفندى طـ مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر – شرح شواهد الكشاف سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨م ص ٦٧.

(٢) راج البحر المحيط صـ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ مكتبة ومطبعة النص الحديثة السعودية – الرياض.

(٣) راجع ديوان الأعشى، والدر اللقيط من البحر المحيط لابن مكتوم القيسى المتوفى سنة ٧٤٩هـ.

وقيل: (موضونة) مرمولة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت قد دخل بعضها فى بعض، كما توضن حلق الدرع، وقيل متواصلة أدنى بعضها مع بعض، وقيل مضاعفة ما قال ابن عباس: منسوجة بالذهب، وقال عكرمة، مشبكة بالدر والياقوت، والوضن: هو النسيج المضاعف، والنضد[1] وقال الفراء: موضونة: منسوجة[2] (ولدان): أى وصائف قال على بن أبى طالب – رضى الله عنه – والحسن البصرى (الولدان) ها هنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً، ولا حسنة لهم ولا سيئة، وقال سلمان الفارسى، أطفال المشركين هم خدام أهل الجنة[3]، وقيل هم غلمان على سن واحدة ما، أنشأهم الله لأهل الجنة، يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة[4].

مخلدون: باقون. قال الحسن والكلبى: لا يهرمون ولا يتغيرون، وقال سعد بن جبير مخلدون: أى مقرطون، وقيل: مسورون، ونحوه عن الفراء[5]. وقيل مفرطون: يعنى ممنطقون من المناطق: وقال عكرمة: منعمون: أكواب: كيزان لا عرى لها، أباريق: لا خراطيم لها: معين: جار على وجه الأرض: لا يصدعون:لا ينالهم صداع، ولا ينزفون : لا يفنى شرابهم.

واختلفوا فى (ينزفون: فى الصافات والواقعة، فقرأ حمزة والكسائى وخلف بكسر الزاى فيهما (ينزفون)[6] ووافقهم عاصم فى الواقعة، وقرأ الباقون بفتح (الزاى) فى الموضعين (ينزفون)، (وأباريق) الإبريق: فعيل من البريق وهو إناء الشرب: قال الشاعر:

كأن إبريقهم ظبى على شرف   مقدم فسبا الكفان ملتوم

---

(١) راجع البحر المحيط صـ١٩٤ جـ٨ والعمدة للقيسى صـ٢٩٦ والقرطبى جـ٧صـ٢٠١.
(٢) معانى القرآن للفراء جـ٣ صـ ١٢٢.
(٣) هامش الكتاب العمدة للقيسى صـ٢٩٦ والقرطبى جـ١٧ صـ٢٠٢.
(٤) ذاته.
(٥) راجع معانى القرآن الفراء جـ٣ صـ١٢٣.
(٦) راجع النشر فى القراءات العشر لابن الجوزى جـ٢ صـ ٣٥٧ المتوفى سنة ٨٣٣هـ.

وقال عدى بن زيد:

وتدعـــو إلى الـــصباح فجـــاءت قيـــنة فـــى يميـــنها إبـــريق

متقـابليـن: لا ينظـر بعضهـم فـى أقفـاء بعض بل يواجه بعضهم بعضا فهو وصف لحسن العشرة وتشذيبَ الخلق – مخـلدون مبقـون أبـداً علـى شكل الولدان لا يتحـولـون عـنه، الأكواب: أوان بلا عرى وخراطيم والأباريق: ذوات الخـراطيم فلا يصدعـون عنها ولا ينزفون: صدع القوم بالخمر لحقهم الصداع فى رءوسهم منها وقيل معـناه: تفـرقـوا أى لا يصـــدعون بسببها ولا يفرقون عنها، وقرأ مجاهد لا يصدعون عنها، أى: لا يتصدعون يعنى: لا يتفرقون لقوله (يومئذ يصدعون). ويصدعون: يعنى لا يصدع بعضهم بعضا أى لا يفرقونهم، يتخيرون: يأخذون خيره وأفضله، يشتهون: يتمنون، المكنون: المصون المحفوظ، مخلدون: مبقون أبداً على شكل الولدان لا يتحولون عنه، لغوا: باطلاً تأثيما: كذبا، أو تأثيما يعنى إثماً.

مواطن الجمال فى النص القرآنى

وحور عين: كأمثال اللؤلؤ المكنون تشبيه مرسل مجمل، أى كأمثال اللؤلؤ فى بياضه، وصفائه؛ حذف منه وجه الشبه، فهو مرسل مجمل، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاما، مدح لهم بإنشاء السلام، لأن السلام من جنس اللغو والتأثيم.

المعنى الإجمالى

فى هذه الآيات يبدأ المولى تبارك وتعالى فى بيان هذا النعيم والذى أعده سبحانه للمقربين، فيبدأ بالنعيم الأسنى، بالنعيم الذى لا يبدأ له نعيم، ولا يدنو منه مقيم. إنه نعيم القرب من الله تبارك وتعالى، وجنات النعيم بأسرها لا تساوى ذلك

التقريب، ولا تعدل ذلك النصيب، ومن ثم يقف عند حد هذه الدرجة ليقول: من هم أصحابها؟ إنهم ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين[1].

فهم عدد محدود من فريق منتقى جله فى الأولين، وقليله فى الآخرين. والروايات مختلفة فيمن هم الأولون، ومن هم الآخرون؟ فقيل إن الأولين هم السابقون إلى الإيمان، ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام، وأن الآخرين هم السابقون إلى من هم من أمة محمد – ﷺ – فالأولون من صدرها، والآخرون من متأخريها، وهذا القول رجحه ابن كثير[2] وقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالآخرين، هذه الأمة واستأنس بقوله عليه السلام: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة[3] ونحن نرى أن المقربين من أمة محمد – ﷺ – أكثر من المقربين من غيرهم من الأمم الماضية، حيث إن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس بنص القرآن قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4].

قال ابن أبى حاتم عبد الله بن بكر المزنى: سمعت الحسن أتى على هذه الآية "والسابقون السابقون أولئك المقربون"، فقال: أما السابقون فقد مضوا، ولكن الله جعلنا من أصحاب اليمين. ثم قرأ الحسن "والسابقون السابقون، أولئك المقربون فى جنات النعيم – ثلة – من الأولين قال: ثلة ممن مضى من هذه الأمة.

وعن محمد بن سيرين أنه قال فى هذه الآية "ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين" قال: كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمة، كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت فى الصحاح

---

(١) راجع فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب جـ٦ دار الشروق.

(٢) راجع ابن كثير.

(٣) راجع ابن جرير والطبرى.

(٤) آل عمران: الآية ١١٠.

وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ: قال: خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم[1] ثم الذين يلونهم فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله – ﷺ – : "مثل أمتى مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره"[2]. فهذا الحديث محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه كذلك هو محتاج إلى القائمين به فى أواخرها، والفضل للمتقدم، مثله كمثل الزرع يحتاج إلى المطر الأول، والثانى، ولكن المعول على المطر الأول، واحتياج الزراعة إليه أشد، وذلك ليثبت ويستوى على سوقه، ولولاه ما ثبت البتة.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم إلى مقام الساعة"[3]، وفى لفظ آخر حتى يأتى أمر الله تعالى وهم كذلك) والغرض أن هذه الأمة يعنى أمة محمد ﷺ أشرف الأمم والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن فى هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. وفى لفظ آخر: (مع كل ألف سبعون ألفاً) – وفى لفظ آخر: مع كل واحد سبعون ألفا. وقد روى الحافظ عن أبى مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أما والذى نفسى بيده لأبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة – كما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام"[4]. وبعد بيان من هم المقربون، يأخذ فى تفصيل مناعم الجنة التى أعدت لهم، وهى بطبيعة الحال المناعم التى فى طوقهم أن يتصورها ويدركوها، ووراؤها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهيأون لإدراكهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهم يتكئون على سرر مشبكة بالمعادن الثمينة،

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

(٤) أخرجه الحافظ للطبرانى.

متقابلين فى راحة وهناء وخلو بال من النصب والتعب والهموم، والآلام وفى الطمأنينة على ما أسبغه الله عليهم من النعم، فلا خوف من نفادها، يقبل بعضهم على بعض يتسامرون، ويطوف عليهم ولدان مخلدون لا يؤثر فيهم الزمن، ولا تغير شبابهم الأيام التى تغير أهل الأرض، وتنكسه فى الخلق، وتصيبه بالأمراض والأوجاع والشيخوخة. وهؤلاء الولدان يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس من خمر صافية سائغة للشاربين، لا يفرقون عنها ولا تنفد من أيديهم، فهو نعيم دائم مستمر. قال تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ (١).

أى أكلها دائم وظلها كذلك، فكل شئ هنا دائم غير مقطوع ولا ممنوع، مع الهدوء والاستقرار والأمن والأمان. قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (٢).

كما أنهم يتمتعون بالفواكه الكثيرة المتنوعة المتشابهة، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٣).

فلا شئ على غير ما يشتهى السعداء الخالدون، كما أنهم يتمتعون بحور عين كأمثال اللؤلؤ المصون الذى لم يتعرض للمس والنظر حيث لم تثقبه يد، ولم تخدشه عين. وفى هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة فى هؤلاء الحور الواسعات العيون، وذلك النعيم المتقدم كله حظوا به، وسعدوا بمناله جزاء بما كانوا يعملون فى الدنيا من الطاعات والنأى عن السيئات فرضى الله عنهم وجزاهم بما عملوا، فذلك مكافأة لهم جزاء محاربتهم النفس والهوى فى دار الفناء، وهم بعد ذلك النعيم كله يحيون فى سكون وهدوء وطمأنينة واستقرار، وترفع عن لغو الأحاديث والجدل... فحياتهم كلها سلام فى سلام حيث تسلم عليهم الملائكة ويسلم بعضهم

---

(١) سورة الرعد: آية ٣٥.

(٢) سورة يس: آية ٥٨.

(٣) سورة البقرة آية ٢٥.

على بعض فى ذلك الجو الهادئ الناعم الآمن، كما أنهم يبلغون السلام من الرحمن عز وجل، فالحياة جميعها سلام فى سلام.

قال تعالى:

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

معانى الألفاظ

مدهنون: مكذبون، مثل: لو تدهن فيدهنون – والمراد بالحديث (القرآن الكريم) أو متهاونون به كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه، ولا يتصلب فيه، تهاوناً به. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون: أى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به، وقرئ (تكْذِبون) غير مدينين: يعنى غير مربوبين، وقيل غير محاسبين[2] وهو من (دان السلطان الرعية إذا ساسهم) ترجعونها: أى الروح (إن كنتم صادقين) أى فى كفركم بالمحيى المميت، المبدئ المعيد، وقيل (فلولا إن كنتم غير مدينين) أى فهلا. وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾[3].

وقال الشاعر:

تعدون عقراً لنيب أفضل مجدكم بنى ضوطرى لولا الكمى المقنعا[4]

وقيل: غير مدينين أى غير مجزيين مقهورين، ترجعونها أى تلك النفس وأنتم

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٨١ إلى ٨٧.

(٢) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/ ٣٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة المشهد الحسينى ١٣٨٧ هـ١٩٦٧م.

(٣) سورة يونس: الآية ٩٨ وتفسير الطبرى ١١/ ١١٧. (٤) ديوان جرير صـ٣٢٨ والصاحبى صـ ١٣٥.

(٤) ديوان جرير صـ٣٢٨ والصاحبى صـ١٣٥.

ترون كيف تخرج الروح عند ذلك إن كنتم صادقين أنكم تمتنعون من الموت ثم أخبرهم، فقال: "أما إن كان من المقربين فروح وريحان" أى فله: روح وريحان "وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين" أى فيقال سلام لك[1].

مواطن الجمال فى النص القرآنى

وتجعلون رزقكم: مضاف مقدر، أى شكر رزقكم وهذا هو الأقوى، لأنه ورد مفسراً بهذا فى البخارى وغيره، أما الرزق مجازاً من لازمه، وهو الشكر والمراد برزقكم أى بشكركم وقيل: الرزق من أسماء الشكر، فهو حقيقة[2].

ونحن أقرب: أى أعلم لأنه مجاز مرسل، ذكر فيه السبب وأريد المسبب، ولو جعل استعارة تمثيلية باستعارة مجموع أقرب إليه، كان أحسن. وجملة: ونحن أقرب معترضة لا حالية وإن جاز أيضاً[3].

المعنى الإجمالى

بعد كل ما تقدم يأتى الإيقاع الأخير للسور الكريمة، وذلك الإيقاع هو لحظة الموت، تلك اللمسة التى ترتعد لها فرائص الإنسان، وترجف لها الأوصال، واللحظة التى ينتهى لديها كل جدال، وبها ينتهى طريق، ويبدأ طريق آخر. ينتهى طريق الحياة الدنيا، ويبدأ طريق الدار الآخرة، حيث لا يملك أحد العودة أو الرجوع للدار الدنيا "حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون".

ثم تنتهى السورة بعرض مشهد الاحتضار وهو منظر شديد التأثير فى النفس والحس: "فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون".

---

(١) راجع معانى القرآن للأخفش الأوسط ٢/ ٤٩٣ وشرح شواهد المغنى صـ٢٢٩ ولسان العرب ٢/ ٣٦٠ وتأويل مشكل القرآن صـ ٥٤٠.

(٢)ذاته صـ١٥٠.

(٣) ذاته.

ولا تملكون أن تردوا عليه هذه الروح المفارقة قبل أن تفارق وتنتهى "ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون". وفى تصويرى أن الله شاهد لهذا المشهد، قريب من ذلك المحتضر ما يلقى الروع والرهبة والخشوع والله شاهد قريب لكل شئ ولكل حدث، ولكن التصوير هنا والتخييل يكاد يجعل هذه الحقيقة المعروفة جديدة مفاجئة مرهوبة "فلولا إن كنتم غير مدينين" إن كنتم طلقاء قادرين، لا تدينكم قوة، ولا يقدر عليكم ديان "ترجعونها إن كنتم صادقين" فأنتم إذن قادرون على رجع هذه الروح لو كنتم كما تزعمون. وما أنتم بقادرين[1]. أفأنتم شاكون فى هذا الحديث الذى يقال لكم عن النشأة الآخرة، وهل أنتم مكذبون بالقرآن، وما يخبركم به من شأن الدار الآخرة، وما يقرره لكم من أمور عقدية، فجعلتم التكذيب رزقكم الذى تحصلون عليه فى حياتكم، وتدخرونه لآخرتكم، ما أسوأه من رزق، إذن فماذا أنتم فاعلون؟ إذ تبلغ الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون.

ثم يصور الموقف التصوير القرآنى الموحى والذى يرسم ظلال الموقف فى لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه وبكل ما وراءه وما يوحيه. فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، إنا لنكاد نسمع صوت الحشرجة، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله تعالى "فلولا إذا بلغت الحلقوم" كما نكاد نبصر نظرة العجز، وذهول اليأس فى ملامح الحاضرين، ومن خلال قوله عز وجل "وأنتم حينئذ تنظرون". هنا فى هذه اللحظة، وقد فرغت الروح من أمر الدنيا، وخلفت وراءها الأرض وما فيها، وهى تستقبل عالماً لا عهد لها به، ولا تملك من أمره شيئاً، إلا ما قدمت من عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فى ذلك الوقت ترى كل شئ، ولكنها لا تستطيع التحدث عن أى شئ، فقد انفصلت عمن حواليها، وليس هناك سوى الجسد الذى يراه الناظرون أمام أعينهم، ولكنهم لا يعلمون شيئاً عما يجرى، وهم فى الوقت ذاته لا يملكون من الأمر شيئا. هنا تقف قدرة البشر، ويقف علم البشر، وينتهى مجال البشر، وهنا يعرف الجميع أنه عاجز قاصر، ولا مجال للجدل، فهى حقائق واقعة أمام أعينهم،

---

(١) راجع مشاهد القيامة فى القرآن للإمام الشهيد سيد قطب صـ١٣٢ دار الشروق.

ولا حول لهم ولا قوة، والأمر هنا يصير كله لله وحده بلا شبهة ولا جدال "ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون" أقرب إليه منكم يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا، أو أقرب إليه بملائكة الموت. وفى ظل هذه المشاعر، مشاعر الرهبة بجلال الموت وارتعاد الفرائص خوفاً وخشية يجئ التحدى الذى يقطع كل قول ويخرس كل لسان، وينهى كل جدال: "فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين".

فلو أن الأمر كما تزعمون أنه لا حساب ولا جزاء، ولا بعث ولا آخره: "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين"، فها أنتم طلقاء غير مدينين، ولا محاسبين. إذن فلترجعونها، وقد بلغت الحلقوم لتردوها عما هى ذاهبة إليه من حساب وجزاء، وأنتم حولها تنظرون، وهى ماضية إلى الديمومة والاستمرارية فى الحياة الآخرة، وأنتم ساكتون صامتون عاجزون. وهنا تسقط كل تعلة، وتنقطع كل حجة، وينتهى كل جدل عدا المكابرة دون حجة ولا دليل. فروح وريحان بضم الراء، أراد فرحمة ورزق، والريحان الرزق[1]. قال النمر بن كوكب:

سـلام الإلـه وريحانـه ورحمـته وسمـاء دِرر[2]

وهذا شاهد لتفسير المفسرين، والعرب تقول: سبحان الله وريحانه، قال أهل اللغة معناه: واسترزاقه، وهو عند سيبويه من الأسماء الموضوعة موضع المصادر. تقول: خرجت أبتغى ريحان الله، أى ابتغى رزقه، وقيل الريحان ها هنا: هو الريحان الذى يشم، وقال أبو عبيدة: (فروح) أراد حياة وبقاء لا موت فيه[3]، وروح: بفتح الراء أى يرد، ومن قرأ فروح وريحان بالفتح أراد الرائحة وطيب النسيم، وقد تكون الروح بمعنى الرحمة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ﴾[4].

أى من رحمته، سماها روحاً لأن الروح والراحة يكونان بها[5].

---

(١) راجع تأويل مشكل القرآن صـ٤٨٧.

(٢) مجاز القرآن للفراء ٢/ ٤٣.

(٣) ذاته صـ٥٣.

(٤) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٥) لسان العرب لابن منظور والتهذيب للأزهرى